

١. د. محمد بن أحمد العتيبي

التَّهْيِيقُ
في دراسة العقيدة الإسلامية

د. محمد سعيد أحمد الشير

التبهيدي

في دراسة العقيدة الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

حقوق الطبع محفوظة لل المؤلف

دار الطباعة المحمدية
٣٠ شارع النيل بالذاهر القاهرة

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ..

أما بعد :

ففي عام (١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م) صدر لي كتاب « في نور العقيدة الإسلامية » يضم أربعاً صفيحة تقريباً ، ويسير الله له القبول وقت بتدريسه في جامعة الأزهر ، والمعهد العالي للدراسات الإسلامية ، وقررت وزارة الأوقاف تدريسه في مراكو إعداد الدعاة على مستوى الجمهورية ..

وأصدر الإمام الراحل فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر السابق أمراً مباشراً بتوفير كمية من هذا الكتاب لتوزيعها على أئمة العالم الإسلامي في دوراتهم التدريبية التي يعقدها لهم الأزهر الشريف ..

ثم شاء الله تعالى أن أذهب معاراً إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م) فدرسته هناك للطلاب والطالبات .. وكان الكتاب في كل هذه المراحل يصور بقدر الحاجة بعدما نفذت طبعته الأولى ..

ورغب إلى بعض الأصدقاء أن أخرج الكتاب في طبعة جديدة فاستعنت بالله وأعدت النظر فإذا بأبحاث تنقح ، ومسائل تضاف ، وموضوعات تستكمل ، وأفكار تتوالد ، وآراء تتجدد ..

وكان فضل الله كبيراً فجاءت الدراسات في شكلها الجديد على أربعة أجزاء ، هي :

— ٤ —

- ١ — التمهيد في دراسة العقيدة الإسلامية .
 - ٢ — الإلهيات في العقيدة الإسلامية .
 - ٣ — النبوات في العقيدة الإسلامية .
 - ٤ — السمعيات في العقيدة الإسلامية .
- وليسمح لى القارىء الكريم أن أقدم له الجزء الأول ، فقد جاء
- بتوفيق الله - متضمنا خمسة مباحث ، هلى النحو التالى :

المبحث الأول :

بين يدى الموضوع

قدمت بيان أهمية دراسة العقيدة ، والمباحث التى يقوم عليها هذا العلم ، والأسماء التى تطلق عليه ..
وأكدت أن دراسة العقيدة هى أول الواجبات لدى الإنسان العاقل،
وأن هقيدة المرء هى ميزان سلوكه وأخلاقه ، وأن الوازع الدينى هو
معيار الاستقامة فى هذه الحياة .

المبحث الثانى :

نشأة علم العقيدة وتطوره

وقسمت هذه النشأة وذلك التطور إلى مراحل هى :

- ١ — مرحلة العهد النبوى .
- ٢ — مرحلة الصراع العسكرى .
- ٣ — مرحلة الصراع السياسى .
- ٤ — مرحلة الصراع الفكرى .
- ٥ — مرحلة العصر الحديث .

- • -

وختمت بكلمة هامة في أذن كل داعية بأن لا يعيب بعضنا على بعض في إطار ضوابط الاجتهاد ومعالم الفكر الراشد .

ونبهت إلى أن الخطر الذي يهدد العقيدة الإسلامية اليوم ليس من داخل الفرق الإسلامية ، وإنما من التيارات الواحفة والمذاهب الهدامة ، الوافدة التي تسرى مع الهواء ، وتشكل حسب الظروف والأحوال ، ويتمثل ذلك في الثالوث الحديث :

— الخطر الصهيوني .

— الفكر المادي .

— اليسار الإسلامي المزعوم .

وقد أفرخ هذا الثالوث الانحلال الخلق وعبادة الشيطان ..

المبحث الثالث :

الإسلام وتقرير العقائد

قدمت منهج الإسلام في تقرير العقائد من خلال شرح هذه الموضوعات :

— المعجزة العقلية لسيدنا محمد ﷺ .

— أصول التفكير في القرآن المجيد .

— المعرفة والتقليد لدى علماء المسلمين .

— مصادر العقيدة في الإسلام .

— الحكم وأنواعه .

وظهر بجلالة أن القرآن المجيد قرر عقائد الإيمان كلها مدعمة بالحجة والبرهان ، وأن الشعار الذي رفعه القرآن في حجاجه مع المخالفين هو :

- ٦ -

«قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» (١).

وبينت أن العقيدة يحكمها العقل ، ويصح مساوها الوحي ، وأن مسألة الإيمان والكفر ترتبط بما كان قطعي الثبوت والدلالة معاً ، فإن فقد القطع في أحدهما فليس هناك عقيدة يترتب عليها الإيمان والكفر ..

المبحث الرابع :

خصائص العقيدة الإسلامية

إن العقيدة الإسلامية تتلخص في كبتين اثنتين هما :

لا إله إلا الله ، محمد رسول الله

وهذه العقيدة من الوضوح واليسر ، ومن العمق والحكمة ، ومن الصدق والحق ما يجعلها تسرى في كيان الإنسان سريان الدم في العروق ، وتتغلغل في أعماقه فتستقر في قرار مكين من عقله وقلبه ..
فهي صوت الفطرة ، ودعوة الأنبياء ، والدين الخالص لله ...

المبحث الخامس :

قراءة في كتب العقيدة

وقد اخترت نماذج أربعة هي :

- ١ - التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل
للإمام ابن خزيمة المتوفى ٣١١ هـ
- ٢ - المواقف في علم الكلام ..
للإمام عضد الدين الإيجي المتوفى ٧٥٦ هـ

(١) سورة النمل الآية ٦٤

٣ - شرح العقيدة الطحاوية

للشيخ ابن أبي العز الدمشقي المتوفى ٧٩٢ هـ

٤ - رسالة التوحيد

للإمام محمد عبده المتوفى ١٣٢٣ هـ

وكان النموذج الأول تمثيلاً للاتجاه النصي، وكان الثاني تمثيلاً للاتجاه الكلامي، وكان الثالث تمثيلاً للاتجاه التوفيق بين النصي والكلامي وكان الرابع تمثيلاً للاتجاه الحديث الذي يسعى إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية ..

ولعل في هذا التهيد ما يفتح آفاقاً جديدة للبحث والدراسة حول العقيدة الإسلامية ..

«وبنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» (١١) .

مكة المكرمة في } ٢٠ من رجب ١٤١٨ هـ
 } ٢٠ من نوفمبر ١٩٩٧ م
 أبو حذيفة

د. محمد سعيد أحمد المسير

أستاذ المقيدة والفلسفة

بجامعة الأزهر بالقاهرة

وجامعة أم القرى بمكة المكرمة

المبحث الأول

بين يدي الموضوع

- أهمية دراسة علم العقيدة
- مباحث علم العقيدة
- أسماء علم العقيدة

أهمية دراسة علم العقيدة

إن دراسة العقيدة هي أول الواجبات لدى الإنسان العاقل ، فليس بالخبر وحده يعيش الإنسان ، وعقيدة المرء هي ميزان سلوكه وأخلاقه ، والوازع الديني هو معيار الاستقامة في هذه الحياة .

وإن نقطة البدء في كل حضارة هي العقيدة التي تحدد الهدف وتحكم السلوك وتوجه المسيرة .

وقد ذكر علماءنا رضى الله عنهم في مفتتح دراساتهم عن العقيدة الإسلامية الفائدة المرجوة من هذه الدراسة .. وقال عضد الدين الإيجي وهي أمور :

الأول : الترقى من خضوض التقليد إلى ذروة الإيقان « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين آمنوا العلم درجات » .

الثاني : إرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة وإلزام المعاندين بإقامة الحجة ..

الثالث : حفظ قواعد الدين من أن تزول لها شبه المبطلين .

الرابع : أن تبنى عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها ، وإليه يؤول أخذها واقتباسها .

الخامس : صحة النية والاعتقاد . إذ بها يرجى قبول العمل ، وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين^(١) .

(١) المواقف ص ٨ ط بيروت .

ولتفصيل ذلك نقول :

١ — العلم بالله تعالى أشرف العلوم :

ميز الله تعالى الإنسان بالعقل وكرمه بالدين وأعلى درجته بالعلم ،
والإنسان جسم وروح ، وغذاء الجسم فيما قدور الله على الأرض من
أقوات ، وغذاء الروح فيما شرع الله من هدى وما أنزل من وحى .

وإذا كان الإنسان يسعى في مناكب الأرض يبتغى فضل الله في الرزق
فواجب عليه أن يفكر ويتأمل ليدرك صنع الله الذي أتقن كل شيء . وليصل
إلى حقيقة الحقائق وكبرى اليقنيات وهي أنه لا إله إلا الله ...

فالإيمان القائم على العلم هو الذي يسمو بالإنسان ويرقى به إلى الكرامة
الحقيقية ، ويمنحه الوجود المتميز عن سائر المخلوقات .

وقد أعلى الله منزلة العلماء فقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة
فقال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط
لا إله إلا هو العزيز الحكيم » (١) .

وخص الله العلماء بالخشية فقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٢)
فعل قدر معرفة الإنسان بربه تكون خشيته منه سبحانه .

وميز القرآن أهل العلم فقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين
آوتوا العلم درجات » (٣) .

وجاءت الأحاديث الشريفة على هذا المتوال فجعلت الفقه في الدين

(١) سورة آل عمران — الآية ١٨

(٢) سورة فاطر — الآية ٢٨

(٣) سورة المجادلة — الآية ١١

من أجل النعم على عباد الله، فقال النبي ﷺ - « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » .

وجعل الرسول - عليه الصلاة والسلام - العلم مجالاً للتنافس الشريف فقال : « لاحسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » .

ومن هنا كان طلب العلم فريضة ، وكان طالب العلم معاناً من الله ، فعن أنى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ... » .

وقمة العلم وذروة سنامه ما يتصل بالله جل جلاله ؛ والانبيا عليهم الصلاة والسلام، واليوم الآخر وما فيه من حساب وسؤال وجنة ونار ، وشرف العلوم بشرف موضوعاتها .. فالله أعلى وأجل .

٢ - بيان العقيدة الصحيحة وإقامة الحجة عليها :

يتحمل المسلم عقيدته لنفسه ولغيره ، فهو يوقن بها عن علم ويبلغها عن بصيرة ، فالإسلام دعوة عالمية تواجه العقائد المختلفة والمذاهب المتباينة .

وعلم العقيدة تماً كد أهميته في جانبيين :

١ - بناء عقيدة المسلم وتوضيح جوانبها وبيان محاسنها .

٢ - إقامة الحجة على المخالفين ، وذلك بأن يقوم العلماء بدراسة العقائد المختلفة الفاسدة لبيان زيفها وإبطال مضمونها ، وتقديم العقيدة الإسلامية مؤيدة بالدليل مدعمة بالبرهان حتى يستطيع الناس تصحيح عقائدهم وتقطع أعذارهم .

فإن الله تعالى قد ربط التكليف ببعثة الرسل وبلوغ الدعوة على وجهها الصحيح.. فقال جل شأنه :دوما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً^(١). وقال سبحانه : ورسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل^(٢).

٣ — مواجهة شبهات المبطلين :

ونحن نواجه طوائف البشر في عقائدهم الفاسدة ، ونقدم لهم عقيدة الفطرة النقية لن يدعنا شياطين الإنس دون شبهات وأباطيل في محاولات يائسة لصد الدعوة والوقوف في وجهها . ولهذا يتأكد على العالم المسلم أن يتبهاً لرد الشبهات وحفظ قواعد الدين من أن تزولها أباطيل الأعداء .

وقد يتوجس البعض من الخوض في الشبهات بحجة إفسادها للعقائد ، وأن الفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها ، ولكن واجب حراس العقيدة وعلماء الدين أن يواجهوا هذه الشبهات ويزيلوها بالبينات حتى لا تسرى في الظلام وتسررب إلى عقول العامة وقلوب الناشئة ، فلكل مقام مقال ...

٤ — علم العقيدة أساس العلوم الشرعية :

القرآن المجيد محفوظ في الصدور ، مدون في السطور ، متواتر في النقل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهياً الله لسنة نبيه ﷺ من دونها وحفظها ، ونشأت العلوم الشرعية حول الكتاب والعنة تفسيراً وشرحاً واستنباطاً ، وتواكبت علوم كثيرة لخدمة العلوم الشرعية كعلوم اللغة العربية وآدابها .

(١) سورة الإسراء الآية ١٥

(٢) سورة النساء الآية ١٦٥

وحرص المسلم على دراسة كل هذه العلوم الأصلية والفرعية انطلاقاً من الأمر الإلهي الأول: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» .

لكن هذه العلوم الشرعية إنما تتقبل بناء على صدق العقيدة في أن القرآن كلام الله وأن الحديث كلام رسول الله وأن أحكام الفقه مستنبطة من الوحي المنزل .

فلا تفسير بغير عقيدة أن الله هو الذي نزل القرآن ، ولا حديث بغير عقيدة أن محمداً رسول الله ، ولا عبادات ومعاملات بغير عقيدة أن المعبود بحق هو الله جل جلاله .. فعرفة المعبود بالجلال والكمال مقدمة معرفة العبادة بالشروط والأحكام .

هـ — العقيدة وإخلاص النية :

إن الأخلاق والعبادات والمعاملات وأفعاله الخير كلها وخصال المعروف بأجمعه إنما يثاب عليها المرء في الآخرة وتتقبل منه عند الله هو وجل إذا انطلقت من إيمان صحيح وقامت على عقيدة صادقة ، ودفع إليها يقين بقاء الله .

فلا عمل بغير إيمان .

والنية هي مدار صحة العمل .

والإخلاص هو أساس القبول .

قال الله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (١) .

وقال جل شأنه : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » (٢) .

(١) سورة البينة : الآية هـ (٢) سورة النساء : الآية ١١٤

وأكد القرآن المجيد أن أعمال الكافرين مردودة عليهم ولا ثواب لهم عنها فقال : « وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » (١) .

وقيل في معنى الهباء المنثور أنه شعاع الشمس إذا دخل الكوة ، أو ورق الشجر اليابس إذا ذرته الريح ، أو الواد ، وقال الإمام ابن كثير في تفسيره : وحاصل هذه الأقوال التلبيه على مضمون الآية وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجوز ولا يظلم أحدا إذا هي لا شيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشئ النافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية .

وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من آية فقال جل شأنه : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » (٢) .

وفي تشبيه آخر بليغ يقول سبحانه وتعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظلماء ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور » (٣) .

والسراب هو ما يرى في الفلاة وقت شدة الحر أنه الماء الجارى فإذا قرب منه الناظر لم يجد شيئا .

والقيعة هي الأرض المستوية المنبسطة وفيها يكون السراب .

(١) سورة الفرقان — الآية ٢٣

(٢) د إبراهيم — الآية ١٨

(٣) د النور — الآية ٤٠

وأعمال الكافرين نوعان: نوع يفعله الكافر يحسبه خيراً كصلة رحم وإغاثة ملهوف وهذا هو الذى يشبه بالسراب .

ونوع يفعله الكافر من سلوكيات الإثم والفجور وهذا هو الذى يشبه بالظلمات بعضها فوق بعض .. فظلمة السلوك مع ظلمة الاعتقاد أطبقت على الكافر فخرس الدنيا والآخرة .

وجاء فى صحيح الحديث ما يؤكده هذا المعنى قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: يا رسول الله إن ابن جندب كان يطعم الطعام ويقول الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فقال: لا لأنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين .

وروى الإمام أحمد أن عدى بن حاتم الطائى قال : يا رسول الله إن أبى كان يصل الرحم ، ويفعل ويفعل ، فهل له فى ذلك ؟ يعنى من أجر ، قال عليه الصلاة والسلام : « إن أباك طلب شيئاً فأصابه ، وفى رواية : إن أباك أراد أمراً فأدركه .. يعنى الذكر .

إن إخلاص النية وصحة العمل مرتبط بصدق العقيدة وصفاء القلب الموصول بالله عز وجل .. ولن يتحقق ذلك إلا بعلم العقيدة ومعرفة أصول الدين ولهذا جاء فى صحيح الحديث : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

فسعادة الدنيا والآخرة مرهونة بالإيمان والعمل الصالح .

• • •

مباحث علم العقيدة

مباحث علم العقيدة تنظم أموراً جوهرية هي :

- ١ - الإيمان بالله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته المقدسة .
 - ٢ - الإيمان بالملائكة الكرام البررة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .
 - ٣ - الإيمان بالكتب المنزلة لهداية البشر وليقوم الناس بالقسط .
 - ٤ - الإيمان بالرسول والأنبياء الذين اصطفاهم الله من خلقه مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .
 - ٥ - الإيمان باليوم الآخر ، يوم الفصل بين الناس ، حين يقومون لحرب العالمين ، وتجدد كل نفس ما قدمت وأخرت .
- وقد اصطلاح العلماء على تقسيم هذه الأمور إلى مباحث ثلاثة هي :

- الإلهيات :

ويتعلق بها ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الله تعالى ، وترتبط بها أبحاث تتعلق بالقضاء والقدر والحسن والقبح والصلاح والأصلح والجبر والاختيار .

- النبوات :

ويتعلق بها ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الرسول والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وترتبط بها أبحاث تتعلق بالمعجزات والكرامات وخوارق العادات المختلفة .

— السمعيات :

وهي الأمور التي تتلقى بالسماع من المعصوم، وتدخل في دائرة الجواز العقلي، وتدور حول الملائكة والجن والبعث والشفاعة والميزان والصراط والجنة والنار .

وكثير من هذه المباحث ليس عقيدة يتوقف عليها الإيمان والكفر ، فهي أمور اجتهادية ، يجوز فيها الخلاف وتتعدد حولها الآراء بناء على وضوح الدليل وصفاء الفهم ، وقوة التأمل ، وحسن النية ...

فموضوع الصفات والتأويل فيها أو التفويض .

وموضوع رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة .

وموضوع الفرق بين النبي والرسول .

وموضوع التفاضل بين الأنبياء والملائكة .

وموضوع الشفاعة لأهل الكبائر في الآخرة .

وموضوع حقيقة الوزن والميزان يوم الحساب .

وموضوعات عدة مشابهة يجوز فيها الاجتهاد وتعدد الآراء ، وهي

أمور ملحقة بالعقيدة كعلم وليست من صلب العقيدة كدين .. فإن العقيدة حددها الله تعالى في قوله :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله

وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا

وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير ، » (١) .

وبينها الرسول ﷺ في حديث جبريل المشهور ، عندما جلس إلى النبي الكريم وسأله : ما الإسلام ؟ قال عليه الصلاة والسلام :

الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً .

ثم سأله عن الإيمان فقال عليه الصلاة والسلام : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، ثم سأله عن الإحسان فقال عليه الصلاة والسلام : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . . (١) .

هذا وهناك اتجاه ينتسب إلى السلف يدرس العقيدة على أساس تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أنواع :

١ - توحيد الربوبية ويعني الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالِكه ، وأنه سبحانه الخالق المدبر .

٢ - توحيد الأسماء والصفات ويعني الإيمان بما سمي الله به نفسه ووصفه به رسوله ، وإثباته على وجه يليق بالله تعالى .

٣ - توحيد الألوهية ويعني إفراد الله تعالى بالعبادة .

ويركز أصحاب هذا الاتجاه على توحيد الألوهية ويرونه متضمناً للنوعين السابقين ، وينضون الطرف عن توحيد الربوبية بدعوى أنه مركوز في الفطرة وأن نقيضه معلوم الامتناع عند الناس كلهم .

ومن ثم تقوم دراساتهم في العقيدة على مسألة الصفات الخبرية وبيان الشرك في الدعاء والذبح والنذر والوقى والتأتم والسحر والخلع بغير الله والتوسل وزيارة القبور .

(١) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا « الحوار بين الجماعات الإسلامية » .

ومع أنه لا مشاحة في الاصطلاح إلا أن هذا التقسيم لا ضرورة له ولا تسانده دلالة لغوية أو شرعية، فالتفرقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية تفرقة مصطنعة، وقد ورد البيان القرآني باستخدام لفظ الرب والإله في معان واحدة تشمل الإقرار والعبادة معاً...

• فقال يوسف عليه السلام: «يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار» (١).

فعبّر أولاً بالآرباب وهي جمع «رب»، وعبر ثانياً بلفظ الجلالة «الله» في إطار معنى واحد هو نفي الشرك والتعدد وضرورة إفراد الله تعالى بالعبادة.

• وأمر القرآن بتقوى الله وتقوى الرب في إطار معنى واحد هو إخلاص العبادة لله فقال: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة» (٢).

وقال: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ..» (٣).

• وجاء الأمر القرآني بعبادة الرب وعبادة الله بلا تفرقة في المعنى المراد منها فقال: «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم ..» (٤).

وقال: «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً» (٥).

• وتوجه القرآن بالأمر إلى الرسول ﷺ بعبادة الرب وعبادة الله، وذلك يعني اتحاد المعنى في لفظي الرب والله.

-
- (١) سورة يوسف - الآية ٣٩ (٢) سورة النساء - الآية ١
(٣) آل عمران - الآية ١٠٢
(٤) البقرة - الآية ٢١ (٥) سورة النساء - الآية ٣٩

فقال : « قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب ، » (١) .

وقال : « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة ، الذي حرمها ، وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين ، » (٢) .

• ووصف القرآن الرب بأنه الخالق المدبر المالك المتصرف ، ووصف الله بنفس هذه المعاني . .

فقال : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ، » (٣) .

فقد بدأ النص هنا بالحديث عن الرب وختم بالحديث عن الله ، وتكرر ذلك في القرآن كثيرا ، ولنقرأ هذه الآيات :

« قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ »

سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟

قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟

سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ؟

قل من يده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟

سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون ؟ ، (٤) :

• ونخص القرآن علم الساعة بالله وبالرب ، وجعل ميقاتها مقصورا .

(١) سورة الرعد - الآية ٣٦ (٢) سورة النمل - الآية ٩١

(٣) د البقرة - الآية ٢١ ، ٢٢

(٤) د المؤمنون - الآية ٨٤ : ٨٩

عليه سبحانه ، بلا تفرقة بين لفظي الرب والله ، فكلاهما يعبر عن معنى التفرد بالعلم والاستثثار بالغيب .

قال جل شأنه : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما عليها عند ربى لا يعلمها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض ، لا تأتكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها ، قل إنما عليها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١) .

• وأضاف القرآن جمع الخلائق وحشرهم للحساب والجواء إلى الرب وإلى الله ..

فقال : « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا » (٢) .

وقال : « قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح يلبنا بالحق وهو الفتاح العليم » (٣) .

• وجاء التعبير القرآني على لسان فرعون بوحدة المعنى في لفظي الرب والإله ، فقال : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري » (٤) .

وقال : « فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى » (٥) .

فلم يكن فرعون يدعى لنفسه شريكا في السموات ولا في الأرض ، ولم يزعم أنه خلق نفسه أو خلق أحدا من البشر .. وإنما أراد فرعون بالتعبير في الموقفين استحقاقه للطاعة واستخفافه بقومه وتسلطه عليهم ..

• • •

(١) سورة الأعراف - الآية ١٨٧

(٢) سورة النساء - الآية ٧٨ (٣) سورة سبأ - الآية ٢٧

(٤) سورة القصص - الآية ٣٨ (٥) سورة النازعات - الآية ٢٣، ٢٤

إن عقيدة المسلم في الرب هي عينها عقيدته في الله، فالرب هو المستحق للعبادة والله هو الخالق الباري المصور، وبالعكس وصدق الله حيث يقول :

« إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين » (١).

وأيا ما كان، فلكل منهجه في البحث والدراسة مع اتفاق الجميع على التوحيد الخالص لله تعالى ذاتا وصفة وفعلًا.

فالله تعالى واحد أحد في ذاته بلا شريك أو صاحبة أو ولد. وهو سبحانه واحد أحد في صفاته ولا يشبه أحدًا من خلقه ولا يشبهه أحد.

وهو جل شأنه واحد أحد في فعله، له الخلق والأمر، فعال لما يريد.

أسماء علم العقيدة

هذه الدراسات في الإلهيات والنبوات والسمعيات تنضوي تحت علم خاص يسمى بأسماء متعددة ، أهمها :

١ - علم التوحيد :

وسمى بذلك لأن مبحث الوجدانية أشهر مباحثه ، والتوحيد هو مركز العائرة في رسالات الله جميعاً إلى الخلق ، قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (١) .

ومن المؤلفات تحت هذا الاسم :

- كتاب التوحيد لأبي منصور الماتريدي ت ٣٢٣ هـ
- جوهره التوحيد لبرهان الدين إبراهيم بن هارون اللقاني ت ١٠٤١ هـ

وهي منظومة حظيت بشروح وحواش وتعليقات .

ويقول ناظمها في مفتتحها :

الحمد لله على صلته	ثم سلام الله مع صلته
على نبي جاء بالتوحيد	وقد دعوى الدين عن التوحيد
فأرشد الخلق للدين الحق	بصيفه وهديه للحق
محمد العاقب لرسول ربه	وآله وصحبه وحوبه
وبعد فالعلم بأصل الدين	محتم يحتاج للتبيين

لكن من التطويل كانت المهم فصار فيه الاختصار ملتزم
وهذه أرجوزة لقبها جوهر التوحيد، قد هذبها
واقه أرجو في القبول نافعاً بها مريداً، في الثواب طامعاً

• رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ت ١٢٢٣ هـ

• كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب
ابن سليمان التيمي ت - ١٢٠٦ هـ

٢ - علم الكلام :

قال صاحب المواقف : وإنما سمى كلاماً إما لأنه يازاء المنطق للفلاسفة،
أو لأن أبوابه عنونت أولاً بالكلام في كذا، أو لأن مسألة الكلام أشهر
أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك فغلب عليه، أو لأنه يورث قدرة
على الكلام في الشرعيات ومع الخصم، (١).

ومن المؤلفات تحت هذا الاسم :

• نهاية الأقدام في علم الكلام للإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم
الشهرستاني ت - ٥٤٨ هـ

• غاية المرام في علم الكلام لسيف الدين الأمدى ت - ٦٣١ هـ

• المواقف لعبد الدين الإيجي ت - ٧٥٦ هـ

(١) المواقف لعبد الدين الإيجي ص ٨ ط بيروت .

٣ - علم أصول الدين:

فباحث هذا العلم هي أصول الدين وقاعدته ، فلا عمل بغير إيمانه ، ولا أخلاق بغير عقيدة .

وقد تكون هذه التسمية في مقابلة علم أصول الفقه المتعلق باستنبط الأحكام العملية من مظانها الشرعية ..

ومن المؤلفات تحت هذا الاسم :

- الإبانة عن أصول الديانة للإمام أبي الحسن الأشعري ت ٣٣٠ هـ
- أصول الدين للإمام أبي منصور عبد القاهر البغدادي ت ٤٢٩ هـ
- الأربعين في أصول الدين للإمام غفر الدين الرازي ت ٦٠٦ هـ
- أبحار الأفكار في أصول الدين لسيف الدين الأمدى ت ٦٣١ هـ

٤ - علم الفقه الأكبر :

الفقه هو الفهم ، وأكبر الفهم وأفضله وأعمقه ما توجه إلى الملاك الأعلى والذات الأقدس والوحى الإلهى الاسمى ..

وهذه التسمية في مقابلة الفقه الأصغر ، الذى هو فقه العبادات والمعاملات ، فلا عبادة إلا بعد معرفة المعبود الحق ، ولا معاملة إلا بمعرفة منهج الله الذى أنزله على رسوله ..

ومن الكتب التى تحمل هذا العنوان كتاب «الفقه الأكبر» (١)

(١) وهو متن يقع فى ست صفحات تقريبا ، ويشكك البعض فى نسبته إلى أبى حنيفة

لأبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ت - ١٥٠ هـ وقد شرحه الملا علي القاري ت ١٠١٤ هـ .

كما شرحه أحمد بن محمد المغنيساوي ت ١٠٩٠ هـ

• - علم العقيدة :

وهي الأمور التي تعتقد بالقلب ، وتصدق بالجنان ، ويطمئن إليها الفؤاد ، وترسخ في الأعماق بحيث تشاقق الروح وتواخيا ، ويصر عليها المرء إصراراً كاملاً ، ويقتنع بها اقتناعاً تاماً . .

ومن المؤلفات التي تحمل اسم العقيدة :

كتب تنسب العقيدة إلى مؤلفها مثل :

• العقيدة الطحاوية لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي [نسبة إلى طحا بصعيد مصر] ت ٣٢١ هـ

• العقائد العنصرية لعبد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي الشيرازي المتوفى ٧٥٦ هـ

• العقائد النسفية لعمر بن محمد النسفي [ت ٥٣٧ هـ] .

• العقيدة الأصفهانية لشمس الدين محمد بن محمود الأصفهاني المولود سنة ٦١٦ هـ بأصفهان والمتوفى سنة ٦٨٨ هـ بالقاهرة ، وقد شرحها الإمام ابن تيمية وخالف مؤلفها في بعض المقاصد . .

وكتب تنسب العقيدة إلى بلاد سألت عنها مثل :

• العقيدة الرواسطية : نسبة إلى بلدة واسط ، يقال إن رجلاً منها سأل الإمام ابن تيمية أن يكتب له عقيدة تكون عدة له ولأهل بيته . .

- ٢٩ -

وقيل لأن المؤلف ذكر فيها أن أهل السنة وسط بين فرق الضلال
من هذه الأمة .

و كتب قلسب العقيدة إلى فرقة من الفرق مثل :

• شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام أبي القاسم هبة الله
ابن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي ت ٤١٨ هـ .

• • •

المبحث الثاني

نشأة علم العقيدة وتطوره

- مرحلة العهد النبوي
- مرحلة الصراع العسكري
- مرحلة الصراع السياسي
- مرحلة الصراع الفكري
- مرحلة العصر الحديث :
- الاتجاه الأشعري
- الاتجاه السلفي
- الاتجاه الاعتزالي
- كلة أخيرة

نشأة علم العقيدة

وتطوره

١ - مرحلة العهد النبوي :

لا يكفل عقل الإنسان إلا بالإيمان بخالقه ومبدع الكون والسموات، ولا تتحقق سعادة البشر إلا بالولاء لمنهج الوحي الإلهي الذي جاءت به الرسل « ليقوم الناس بالقسط » .

والإنسان بطبيعته متسائل « وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً » ، فهو يتطلع إلى معرفة الغيب ، وإلى علم الأسباب والمسببات ، وإلى اكتشاف المجهول ، والسعى لاكتساب المعرفة بكل شيء .

وعندما أشرقت الأرض بنور ربها وجاء الوحي المحمدي كانت الكلمة الأولى التي هي مفتاح السعادة ومعيار الإيمان — هي كلمة التوحيد « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

وافتح القرآن المجيد بآيات تدعو إلى العلم والمعرفة باسم الرب الذي أبدع وعلم ، وأحكم وأتقن ، وبث دلائل الأنفس والآفاق ، فقال: « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » (١) .

وتوالت العقائد في النبوة والوحي ، والبعث والحشر ، والحساب والجزاء ، والجنة والنار ، مدعمة بأدلتها العقلية ، تخرج من مشكاة النبوة نوراً على نور .

(١) سورة العلق — الآية ١:٥

(٣ - التمهيد)

ووقف الناس متسائلين عن بدء الخلق ، ومصير الكون ، وعلاقة الإنسان بخالقه ، وتلقاهم الرسول ﷺ بما يشرح الصدر ويقيم الحجة ويقطع دابر الشبهة .

وعلى سبيل المثال فقد أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال :

دخلت على النبي ﷺ ، وعقلت ناقتي بالباب ، فأتاه ناس من بني تميم فقالوا : اقبلوا البشرى يا بني تميم ، قالوا : قد بشرتنا فأعطنا (مرتين) .

ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقالوا : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم .

قالوا : قد قبلنا يا رسول الله .. جئنا نسألك عن هذا الأمر ...

قال : كان الله ولم يكن شيء غيره .

وكان مرشه على الماء .

وكتب في الله كركل شيء .

وخلق السموات والأرض .

قال عمران : د فنادى مناد ، ذهبت ناقتك يا ابن الحصين ، فانطلقت فإذا هي تقطع دونها السراب ، فوالله لو ددت أنى كنت تركتها . . .

ففي هذا الحديث يقص عمران بن حصين مشهدا في حضرة النبي ﷺ ، لقد دخل عليه بنو تميم فقال لهم : اقبلوا البشرى أى هلموا أعلبكم عملا صالحا يصل بكم إلى الجنة ويحقق لكم السعادة الأبدية ، لكن القوم ظنوا البشرى مآكل ومشارب وأموالا فطلبوا العطاء العاجل وألحوا في سؤاله .

وفي هذه الأثناء دخل قوم آخرون من أهل اليمن جاءوا من أجل الهدف السامى ومعرفة الوجود الأعلى والاستقامة على الحق ، فبدأ الرسول ﷺ يشرح لهم الحق ، ويبين لهم بدء الخلق ، ويوجب على تساؤلات القوم .

وفي مواقف عدة تكلم الصحابة في القضاء والقدر ، وطرّحوا تساؤلات أمام رسول الله ﷺ .. وجاء في صحيح مسلم أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال :

كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأثانا رسول الله ﷺ فقعده وقعدنا حوله ، ومعه خضرة ، فنكس فجعل ينكس بمنصرته^(١) ثم قال : ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة .

فقال رجل : يا رسول الله أفلا نملكك على كتابنا وندع العمل ؟ !

فقال : من كان من أهل السعادة فيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، اعملوا فكل ميسر ، أما أهل السعادة فيسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ :

« فإما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسييسره للإسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسييسره للعسرى » ،^(٢) .

• • •

وقد كملت العقيدة على عهد رسول الله ﷺ وسلمت من التفتن ، وكان إيمان المهاجرين والأنصار هو الإيمان الحق الذي لم تعرف الدنيا له مثيلاً .

(١) المنصرة — بكسر الميم — ما أخذه الإنسان بيده واختصره ، من عصا صغيرة وعكاز صغير وغيرهما ، ونكس — بتخفيف الكاف — وتشديدها — لفتان فصيحتان أى خفض رأسه ، ونكس أى خط خطا يسيراً مرة بعد مرة .

(٢) سورة الليل — الآية ٥ : ١٦

- ٣٦ -

في اليقين به والثبات عليه والدفاع عنه .. وشهد الوحي المنزل بالجنة لكثير
منهم ، قال تعالى :

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في
قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، (١) » .
وقال جل شأنه :

« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم
يا حسنة رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار
خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم ، (٢) » .

(١) سورة الفتح — الآية ١٨
(٢) سورة التوبة — الآية ١٠٠

٢ - مرحلة الصراع العسكري :

انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ووقف الناس حيارى فيمن يخلف الرسول في قيادة الأمة ، واجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ولحق بهم من المهاجرين أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ..

وبعد مداولات ومراجعات انتهى الاجتماع بببيعة أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله وإماما للمسلمين ..

ومنذ تلك اللحظة تفجرت قضايا عقدية ما زالت إلى اليوم محل اجتهد وبحث ، وتقدمت قضية الإمامة لتحتل مكان الصدارة في فكر المسلمين ، ولتأخذ وقتا وجهدا ، ولتدفع إلى معارك وحروب، تركت جروحا غائرة في جسد الأمة الإسلامية .

ثم تلى ذلك قضية الردة والتكفير، فقد ارتد بعض الأعراب والقبائل التي كانت حديثة عهد بالإسلام ، وامتنع بعضهم عن إخراج الزكاة .

وحدثت مشاورات بين الخليفة أبي بكر وعمر بن الخطاب، فقد رأى عمر الكف عن محاربة مانعي الزكاة حتى لا تتعدد جبهات القتال واحتج بقول رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله .

فرد عليه أبو بكر قائلا :

واقه لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه ..

فقال عمر : فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحق .

كما ظهرت قضية السنة والبدعة ، وتجلي ذلك في مسألة جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه ، فقد أخرج البخاري بسنده عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال :

أرسل إلي أبو بكر الصديق مقتل الإمامة^(١) ، فإذا عمرو بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر^(٢) يوم الإمامة بقراء القرآن ، وإن أخشى إن استحر القتل بالقراء بالمواطن^(٣) فيذهب كثير من القرآن ؛ وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن .

قلت لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

قال عمر : هذا — والله — خير .

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الخي رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا تهملك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه .

قال زيد : فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن ..

(١) أي عقب معركة الإمامة في مواجهة مسيلمة الكذاب ، وقتل فيها جماعة كثيرة من الصحابة ، قيل سبعمائة وقيل أكثر .

(٢) أي اشتد وكثر .

(٣) أي المعارك الحربية .

قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

قال : هو - والله - خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ...

فتبعت القرآن أجمعه من العصب واللخاف^(١) وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجد لها مع أحد غيره^(٢) ، « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حتى جاءت براءة .. »

فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنهما ..

وقد ساق الإمام ابن حجر في شرحه لهذا الحديث أقوال العلماء في تفسير موقف الصديق والفاروق وما يؤخذ منه من قواعد شرعية .. قال :

قال ابن بطال : إنما نفي أبو بكر أولاً ثم زيد بن ثابت ثانياً لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله ، فكبرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول ، فلما نهما عمر على فائدة ذلك ، وأنه خشية أن يتغير الحال في المستقبل إذا لم يجمع القرآن فيصير إلى حالة الخفاء بعد الشهرة - رجعا إليه ..

قال : ودل ذلك على أن فعل الرسول ﷺ إذا تجرد عن القرائن - وكذا تركه - لا يدل على وجوب ولا تحريم اهـ

-
- (١) العصب بضم الأول والثاني جمع عسيب وهو جريد النخل ، واللخاف بكسر اللام جمع الخفة بفتح اللام ، وهى صفائح الحجارة الرقاق .
(٢) كان شرط الجمع الحفظ في الصدور ، والكتابة بين يدي الرسول ، وهو لم يجدها مع غيره أى مكتوبة ، فالجميع يحفظونها .

وتلك قاعدة مهمة ندرأ بها في وجه الذين يمنعون الخير ويحرمون الناس من ثواب الله بحجة أن الرسول لم يفعل أو أنه لم يأمر . .

ثم نفى ابن حجر أن يكون موقف الصديق والفاروق زيادة على احتياط رسول الله وأكده أنه مستمد من القواعد التي مهدها الرسول ، ونقل عن ابن الباقلاني قوله : كان الذي فعله أبو بكر من ذلك فرض كفاية ، بدلالة قوله ﷺ « لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن » ، مع قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه »^(١) ، وقوله : « إن هذا لفي الصحف الأولى »^(٢) وقوله : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة »^(٣) .

فكل أمر يرجع لإحصائه وحفظه فهو واجب على الكفاية ، وكان ذلك من النصيحة لله ولرسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم .

وقد فهم عمر أن ترك النبي ﷺ جمعه لا دلالة فيه على المنع ، ورجع إليه أبو بكر لما رأى وجه الإصابة في ذلك ، وأنه ليس في المنقول ولا في المعقول ما ينافيه ، وما يترتب على ترك جمعه من ضياع بعضه ، ثم تابعها زيد بن ثابت وسائر الصحابة على تصويب ذلك^(٤) .

وقد أرسى ذلك أصلاً كبيراً في التشريع الإسلامي هو الاستحسان والمصالح المرسلات انطلاقاً من قوله تعالى : « وافعلوا الخير لعلكم تفلحون »^(٥) .

-
- (١) سورة القيامة - الآية ١٧ .
 - (٢) « الأعلى » - ١٨ .
 - (٣) « البينة » - ٢ .
 - (٤) فتح الباري - المجلد التاسع ص ١٣ ط دار الفكر .
 - (٥) سورة الحج - الآية ٧٧ .

يقول الإمام نجم الدين الطوفي :

وبما يؤكد العمل بالمصالح المرسله أن الصحابة رضی الله عنهم عملوا
أموراً لمطلق المصلحة لا لتقدم شاهد بالاعتبار :

نحو كتابة المصحف ولم يتقدم فيها أمر ولا نظير ، وولاية العهد من
أبي بكر لعمر رضی الله عنهما ولم يتقدم فيها أمر ولا نظير ..

وكذلك ترك الخلافة شوري ، وتدوين القوانين ، وعمل السكة^(١)
للمسلمين واتخاذ السجن ، فعل ذلك عمر رضی الله عنه .

وهدم الأوقاف التي يازاء مسجد رسول الله ﷺ والتوسعة فيه عند
ضيقة ، وتجديد الأذان الأول في الجمعة ، فعل ذلك عثمان رضی الله عنه .
كل ذلك لمطلق المصلحة^(٢) .

• • •

ثم اتسعت الفتوحات الاسلامية ، وسارت قوافل النور تمحو ظلام
الشرك وظلم الطواغيت ، فدخلت في الإسلام طوائف تقية ، أو سعيأ
للمآرب ، أو تربصا بفتنة ..

وكان مقتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مفاجأة أذهلت المسلمين
وكشفت عن الخطر الدائم الذي يهدد المسلمين من تلك الطوائف
الدخيلة ..

لكن الأمر امتد واستفحل وماجت الأرض بحركة عصيان وتمرد
طائفة جمعت كل أصحاب الأهواء وأحكمت حلقاتها على المدينة المنورة
وقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضی الله عنه ..

(١) السكة بكسر السين الدراهم المنقوشة .

(٢) شرح مختصر الروضة - تحقيق د ، عبد الله بن عبد المحسن التركي

ج ٣ ص ٢١٣ ط الرسالة .

ودم الأمة ما دهمها من حروب طاحنة في موقعتي الجمل وصفين ،
وانتهت المأساة بمقتل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضى الله عنه في
سحر يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان عام أربعين
من الهجرة ...

وفي هذه المرحلة أطلت على المسلمين أفكار الحلول والاتحاد والتشبيه،
وتولى كبرها غلاة الشيعة يتقدمهم عبد الله بن سبأ ..

وامتدت قضية التكفير لتمام المسلمين جميعاً ، فلم يكده ينجو مسلم من
أن يحكم بها أو يحكم عليه بها ، وتولى كبرها الخوارج فقد كانوا أكثر
الفرق إرهاباً لمجتمع المسلمين .

٣ - مرحلة الصراع السياسي :

انتهت الخلافة الراشدة وأصبح الملك عضواً ، وتصدعت الأمة بأحزاب سياسية وفرق دينية ، ألقت السلاح في مواقع كثيرة وبدأت المعارك الكلامية ، فشهدت الساحة جدلاً كبيراً بين الشيعة والخوارج والقدرية والجبرية والمرجئة . .

وتدخل الفكر الوافد الفيلسفي والصوفي ليولد في الأمة مذاهب هدامة وليشد من أزر الغلاة والزنادقة والملاحدة . .

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه مقدمة لحديث جبريل المشهور عن يحيى بن يعمر قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجن ، فأنطلقت أنا وحيد بن عبد الرحمن الخيري حاجين أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر .

فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخل المسجد فاستفتته أنا وصاحبي : أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلى ، فقلت :

أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتفقرون^(١) العلم ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأين الأمر أتق^(٢) . . .

(١) تقفر العلم - بتقديم القاف على الفاء أو بالعكس - معناه طلب العلم والبحث عن غامضه واستخراجه خفيه .

(٢) أي أتممت ، لم يسبق به علم عن الله تعالى ، وإنما يعلمه بعد وقوعه .

قال ابن عمر : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم
برآء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد
ذهباً فأنفقته ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر . . . ثم ساق حديث
جبريل . . .

وقامت السلطة السياسية لنصرة مذهب على مذهب حماية للدولة
وليس ولاء لله . .

وعلى سبيل المثال فإن أول من قال بخلق القرآن الجعد بن درهم ،
فقتله خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى بالكوفة عام أربعة
وعشرين ومائة ، خطاب الناس فقال :

أيها الناس ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه
زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله
عما يقول الجعد علواً كبيراً . .

ثم نزل فذبحه في أصل المنبر . . . ١١

وشاء الله أن يقتل خالد بن عبد الله القسري شر قتلة ، قتله يوسف
ابن عمر ، فبتر قدميه ثم ساقه ثم نخذه ثم صدره ، فأتى ولا يتكلم كلمة
واحدة ولا تأوه حتى خرجت روحه^(١) .

وتدور الأيام دورتها وجاء الخليفة العباسي المأمون فاعتنق مذهب
الاعتزال وحمل الناس على القول بخلق القرآن وأرسل عام ٢١٨ هـ كتاباً إلى
والي بغداد [سحق بن] إبراهيم بن مصعب يطلب منه امتحان القضاة

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق محمد عبد العزيز النجار ج ٩
ص ٢٩٤ ، ج ١٠ ص ٢٠ ط مطبعة السعادة .

والمحدثين في مسألة القرآن، كما أمره أن يأخذ على القضاة ههداً أن لا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن ..

ولقد تحمل الإمام أحمد بن حنبل عناء شديداً وبلاء كبيراً في مواجهة هذا التعصب السياسي على عهد المأمون والمعتصم والوائق إلى أن جاء الخليفة العباسي المتوكل فترك القول بخلق القرآن وأطلق سراح أحمد ابن حنبل ..

ولقد اشتهر الحديث عن العقائد في هذه المرحلة باسم علم الكلام وتبنته فرق المبتدعة المخالفين لأهل الحديث والسلف، ولهذا ورد القدم لعلم الكلام على السنة أئمة السلف، فقال أبو يوسف لبشر المريسي المعتزلي: العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل: زنديق أورى بالوندقة ..

وقال الشافعي رحمه الله تعالى :

حكى في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال هذا جواء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام ..

وتعددت كتب الأئمة في الرد على هؤلاء، مثل :

• كتاب الرد على الزنادقة والجهمية .

للإمام أحمد بن حنبل ت ٢٤١ هـ

• كتاب خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل.

للإمام البخاري ت ٢٥٦ هـ

• كتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ..

— ٤٦ —

للإمام عبد الله بن محمّد بن قتيبة ت ٢٧٦ هـ .

• وكتاب الرد على الجهمية

• وكتاب الرد على المريسي

وكلاهما للإمام أبي عثمان الدارمي ت ٢٨٠ هـ

وهذه الكتب مجموعة في مجلد واحد يسمى : عقائد السلف (١) .

وإن كان البعض يشكك في نسبة الكتاب الأول إلى الإمام أحمد ،
وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء : إنه موضوع عليه .

(١) تحقيق د. علي سامي النشار وعمرار جمعة الطالبي ط منشأة
المعارف بالإسكندرية .

٤ - مرحلة الصراع الفكري :

تموت الخلافة الإسلامية منذ العصر العباسي الثاني (٢٣٢ هـ) إلى دول متعددة ، كالدولة الصفارية والسامانية في خراسان وما وراء النهر ، والدولة الحمدانية في الموصل وحلب ، والطولونية والإخشيدية في مصر ، والفاطمية في المغرب ، والأغالبة في تونس ، والأدارسة في مراکش ، والأموية في الأندلس .

وقد قامت بعض هذه الدول منذ عهد مبكر أثناء الخلافة الأموية في دمشق وأثناء العصر العباسي الأول . .

وتعدد هذه الدول أدى إلى تعدد الاتجاهات المذهبية والفكرية ، فكان منها الشيعة والسنة ، ومنها المعتزلة والخوارج ، واحتضن الخلفاء والأمراء أئمة هذه المذاهب ، وقامت حركة تأليف واسعة في شتى فنون الفكر واتسع الجدل بين العلماء بعيدا عن ساحة الحكم ، وقام علم الكلام جديدا في منهجه ، فقد تسلح بسلاح خصومه في المنطق ، ودرس الفلسفة وجمع الشبهات ، وساق الأدلة العقلية على النمط المنطقي ليؤيد قضايا العقيدة ويتنصر للدين ويدفع فن الزنادقة والملحدين . .

فكان أبو الحسن الأشعري (ت ٣٣٠ هـ)^(١) فائحة هذا العهد بعد أن ترك مذهب الاعتزال الذي ظل عليه أربعين عاما في حضن زوج أمه

(١) هناك خلاف في سنة وفاة الأشعري فقبل سنة ٣٣٠ هـ ، أو ٣٢٤ هـ ، أونيف وثلاثين وثلاثمائة .

أبى على الجبائى شيخ المعتزلة فى عصره ، وتحول إلى مذهب السلف ، فرقى كرسيا فى المسجد الجامع فى البصرة ونادى بأعلى صوته : من عرقى فقد عرقى ، ومن لم يعرقى فأنا أعرفه بنفسى ، أنا أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ، كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا تراه الأبصار ، وأن أفعاله الشر أنا أفعالها ، وأنا تائب مقلع ، معتقد للود على المعتزلة ، مخرج لفضائلهم ومعاييرهم .. (٢) .

وامتنشق الأشعرى سلاح المعتزلة الجدل ، ونصر به مذهب السلف ، ونجا بعلم الكلام منحى جديدا وقال مستحسنا الخوض فى علم الكلام : « إن طائفة من الناس جعلوا الجهل رأس مالم ، وثقل عليهم النظر والبحث عن الدين ، ومالوا إلى التخفيف والتقليد ، وطعنوا على من قتش عن أصول الدين ونسبوه إلى الضلال ..

وزعموا أن الكلام فى الحركة والسكون ، والجسم والعرض ، والألوان والأكوان ، والجو والطفرة ، وصفات البارى عز وجل - بدعة ، وقالوا لو كان ذلك هدى ورشادا لتكلم فيه النبى ﷺ وخلفاؤه وأصحابه ..

قال أبو الحسن :

والنبى ﷺ لم يقل أيضا إنه من بحث عن ذلك وتكلم فيه فاجعلوه مبتدعا ضالا .. ثم إن النبى ﷺ لم يجعل شيئا مما ذكرتموه من الكلام فى الجسم والعرض والحركة والسكون والجو والطفرة ، وإن لم يتكلم فى كل واحد من ذلك معينا ، وكذلك الفقهاء من الصحابة ..

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ، تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ص ٤٤٦ - ٢٥ ط مكتبة النهضة المصرية .

غير أن هذه الأشياء التي ذكرتموها معينة، أصولها موجودة في القرآن والسنة، مجملة غير مفصلة ..

وأما الكلام في أصول التوحيد فأخوذ أيضاً من القرآن الكريم، قال تعالى « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا، وهذا كلام موجو منه على الحجة بأنه واحد لا شريك له ..

ونحتاج على من قال إن الله تعالى وتقدس يشبه المخلوقات وإنه جسم ، بأن نقول له :

لو كان يشبه شيئاً من الأشياء لكان لا يخلو من أن يكون يشبهه من كل جهاته أو من بعض جهاته ..

فإن كان يشبهه من كل جهاته وجب أن يكون محدثاً من كل جهاته ، وإن كان يشبهه من بعض جهاته وجب أن يكون محدثاً مثله من حيث أشبهه ، لأن كل مشتبهين فحكمها واحد فيما اشتبهاه ..

ويستحيل أن يكون المحدث قديماً والقديم محدثاً .. قال تعالى وتقدس « ليس كمثل شيء » ...

ثم ذكر الأشعرى مسائل الفروع في الفقه وقال إن مرد هذه إلى السمع وإلى الرسل ، أما ما يتعلق بالأصول فقال :

ينبغي لكل عاقل مسلم أن يرد حكمها إلى جملة الأصول المتفق عليها بالعقل والحس والبدية ، لأن حكم مسائل الشرع التي طريقها السمع أن تكون مردودة إلى أصول الشرع الذي طريقه السمع ..

وحكم مسائل العقلية والمحسوسات أن يرد كل شيء من ذلك إلى بابه ، ولا تخلط العقلية بالسمعية ، ولا السمعية بالعقلية ..

(٤ - التمهيد)

- ٥٠ -

فلو حدث في أيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم - الكلام في خلق القرآن وفي الجزء والطفرة بهذه الألفاظ لتكلم فيه وبينه كما بين سائر ما حدث في أيامه من تعيين المسائل والتكلم فيها ..

فإن قال قائل : فأنا أتوقف في ذلك فلا أقول مخلوق ولا غير مخلوق ، قيل له :

فأنت في توقفك في ذلك مبتدع ضال ، لأن النبي ﷺ لم يقل إن حدثت هذه الحادثة بمدى توقفوا فيها ولا تقولوا فيها شيئاً ، (١) .

وتوالى أئمة أعلام على هذا الدرب مثل أبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) وأبي المعالي الجويني (ت ٤٧٨ هـ) وأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) واختلط علم الكلام بالفلسفة ، وسيقت قضايا فلسفية البدء ، عقلية المنهج ، قرآنية النتيجة ..

فلكي يصلوا إلى حقيقة إيمانية مهدوا لها تمهيدات بعيدة وناقشوا قضايا دخيلة ، وتعرضوا لأمور لها عمقها الفلسفي والخيالي ..

وعلى سبيل المثال فإن كتاب العقائد النسفية لعمر بن محمد النسفي (ت ٥٣٧ هـ) بدأ بهذه العبارة :

قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق خلافاً للسوفسطائيين ..

(١) نقلاً عن كتاب تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون تأليف عمر نورخ ص ٢٣٥ ط دار العلم للملايين سنة ١٩٨٣ م

- ٥١ -

ثم قسم أسناب العلم إلى ثلاثة هي :

الحواس السليمة والخبر الصادق والعقل ..

وبعد شرح هذه الأسباب انتقل إلى قضية حدوث العالم فقال : والعالم بجميع أجزائه محدث ، إذ هو أعيان وأعراض ..

فالأعيان ماله قيام بذاته ..

وهو إما مركب وهو الجسم ..

أو غير مركب كالجرهر ، وهو الجزء الذي لا يتجزأ ..

والعرض ما لا يقوم بذاته ، ويحدث في الأجسام والجواهر ، كالألوان والأكوان والطعوم والروائح

والحدث للعالم هو الله تعالى الواحد القديم الحى التامد العليم السميع البصير ... (١) .

وقد عرف ابن خلدون ت ٨٠٨ هـ علم الكلام بأنه :

علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والود على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة ..

وقال في موضع الآخر :

فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فروضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية ، فترفع البدع وتزال الشكوك والشبه عن تلك العقائد (٢) .

(١) متن العقائد النسفية ضمن كتاب مجموع مهمات المتون ، ص ١٩ ط دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٩٩٤ م .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٣ . ص ٣٦٩ ط دار الكتب العلمية - بيروت .

ولقد حل ابن تيمية ت ٧٢٨ هـ حملة شعواء على المتكلمين واتهمهم
بالبعد عن طريقة الكتاب والسنة .

والتأمل لفكر ابن تيمية يجد أنه لم يفعل أكثر مما فعل علماء الكلام
أنفسهم، فلقد رد ودافع بنفس أسلوب ومنهج المتكلمين والفلاسفة، وأعاد
لنا موقف الإمام أبي حامد الغزالي من الفلاسفة وفرق الزيغ .

ولما جاء ابن أبي العز الممشقي ت ٧٩٢ هـ ليشرح العقيدة الطحاوية:
قال :

وشرح هذه العقيدة غير واحد من العلماء ولكن رأيت بعض
الشارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم واستمد منهم وتكلم
بعبارتهم . .

ثم قال :

وقد أحييت أن أشرحها سالكاً طريق المؤلف في عباراتهم ، وأنسج
على منوالهم ، متطفاً عليهم لعل أن أنظم في سلكهم ، وأدخل في عدادهم
وأحشر في زميرهم .. (١) .

ومع ذلك فإنك إذا تصفحت شرح ابن أبي العز تجده لا يختلف عن
منهج المتكلمين في شيء ..

فلقد تكلم عن الماهية وأحكام النقيض والضد ، والمطلق الكلي
دل هو موجود في الأذهان أو الأعيان ، والواجب والممكن ، والنوع
والجنس ، والدور والتسلسل بل إنه رجح - كشيخه ابن تيمية -
تسلسل الحوادث في الماضي وقال :

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٣ ط المكتب الإسلامي سنة .

ومن المعلوم بالفطرة أن كون المفعول مقارنا لفاعله لم يزل ولا يزال معه - ممتنع محال ، ولما كان تسلسل الحوادث في المستقبل لا يمنع أن يكون الرب سبحانه هو الآخر الذي ليس بعده شيء ، فكذا تسلسل الحوادث في الماضي لا يمنع أن يكون سبحانه وتعالى هو الأول الذي ليس قبله شيء .. (١) .

وتكلم ابن أبي العز عن واجب الوجود والممكن والعلاقة بينهما فقال :

فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته قطعاً للتسلسل (٢) ، فإننا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن ، وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ..

وهذه الحوادث وغيرها ليست بمتنعة ، فإن الممتنع لا يوجد .

ولا واجبة بنفسها فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ..

فعدمها ينفي وجودها (٣) ..

ووجودها ينفي امتناعها .

وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه كما قال تعالى

(١) شرح المقيدة الطحاوية ص ١٣٤ ط المكتب الإسلامي سنة

١٣٩٤ هـ .

(٢) لاحظ أن الشيخ هنا ينفي التسلسل وقد قبله هناك .

(٣) في النسخة المطبوعة « وجودها ، وهو خطأ والصواب ما أثبتناه

فإن قبول الشيء للوجود والعدم يدل على إمكانه وينفي وجوبه .

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، » (١)

• • •

إن الذين يهاجمون علم الكلام بمصطلحه الجديد إنما يستخدمون منهج علم الكلام ذاته ، فهم متكلمون رغم أنوفهم . .

وإن الذين يدافعون عن الإسلام في مواجهة العلمانيين وأهل الضلال إنما يقوم دفاعهم على منهج علم الكلام من حيث لا يشعرون . . .

وإذا كان الأقدمون عايشوا عصرهم وتغلّبوا على خصومهم بسلاح أعدائهم فإن المحدثين لن ينجحوا إلا باستخدام سلاح العلم الحديث . وملاحظة التطور السريع لبحوث الفضاء والهندسة الوراثية والاستنساخ . .

فإن لكل زمن قضاياها ولكل عصر شؤنه ، ويبقى موضوع علم الكلام واحداً على مدى العصور وهو الدفاع عن عقائد الإيمان بالأدلة العقلية المتاحة لكل جيل .

وهذه الأدلة متضمنة في القرآن المجيد يعقلها العالمون على مدى تاريخ الحياة ، ولا تجتمع لجيل دون آخر ، ولا يستأثر بها سلف دون خلف ، وإنما تظل تتبهدى مع عمق التأمل وفطنة العقل وصفاء الفطرة . . قال تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ، » (٢) .

(١) سورة الطور — الآية ٣٥ وراجع ص ١١٣ من شرح الطحاوية .

(٢) سورة فصلت — الآية ٥٣

• — مرحلة العصر الحديث :

تبلور علم العقيدة الآن في ثلاثة اتجاهات رئيسية هي :

— الاتجاه الأشعرى .

— الاتجاه السلفى .

— الاتجاه الاعتزالي .

* * *

الاتجاه الأشعرى :

يتبوأ الاتجاه الأشعرى مكان الصدارة في معظم الجامعات والجمعيات الإسلامية ، وبخاصة في الأزهر الشريف ..

ففي مراحل التعليم الأولى تقوم المناهج على منظومة الخريدة البهية في العقائد التوحيدية لأبي البركات أحمد بن محمد الدردير المتوفى ١٢٠١ هـ .

وفي المرحلة الثانوية تعتمد المناهج على جوهرية التوحيد لبرهان الدين إبراهيم بن هارون اللقاني المتوفى ١٠٤١ هـ وشروحها وبخاصة شرح الشيخ الباجورى المتوفى ١٢٧٧ هـ .

وفي المرحلة الجامعية يدرس الطلاب كتاب الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي المتوفى ٥٠٥ هـ والمواقف لعصم الدين الإيجي المتوفى ٧٥٦ هـ وشروحها للشريف الجرجاني المتوفى ٨١٦ هـ ، وشرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني المتوفى ٧٩٢ هـ ، ويعرجون على كتب الرازي والآمدى .

والملاحظة الجديرة بالاعتبار أن هذه الدراسة الأزهرية لا تعرف التعصب ولا تلزم بالاعتقاد في المذهب ، وتدع لعلماء الأزهر فرصة الاختيار الحر ..

وقد نجد من الأزهريين من هو اعترالى المذهب ، بل إن أئمة كباراً
 تولوا مشيخة الأزهر أو كانوا في مستواها نادوا بأفكار اعتزالية
 ودافعوا عنها كالشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ) والشيخ محمد مصطفى المراغى
 (ت ١٩٤٥م) والشيخ محمود شلتوت (ت ١٩٦٣م) ومن أئمة الأزهر
 الفلاسفة الشيخ مصطفى عبد الوازق (ت ١٩٤٧م) وأنجب الأزهر أئمة في
 التصوف منهم الدكتور عبد الحليم محمود (ت ١٩٧٨م) ، وحظى الاتجاه
 السلفى بعدد من علماء الأزهر نالخوا عنه وجاهدوا في سبيله منهم الشيخ
 محمد حامد الفقى (ت ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م) الذى أسس جماعة أنصار
 السنة المحمدية لتبني الدعوة الوهابية ، وساعده الشيخ عبد الوزاق عفيفي
 (ت ١٤١٥هـ ١٩٩٤م) وقد تولى منصباً رفيعاً في الإفتاء السعودى ..

الاتجاه السلفى :

برز هذا الاتجاه أكثر وضوحاً على أيدي الدعوة الوهابية التى قادها
 الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى المتوفى ١٢٠٦هـ بتحالفه مع البيت
 السعودى ..

ويعتمد الاتجاه السلفى على كتب الإمام ابن تيمية ت ٧٢٨هـ وتلميذه
 ابن القيم ت ٧٥١هـ وتقوم مناهج علم العقيدة في المملكة العربية السعودية
 على رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأهمها كتاب « التوحيد الذى هو
 حق الله على العبيد » وكتاب « مسائل الجاهلية » .

وكتابات الشيخ مختصرة وأكثر عباراته إشارات ..

ويعد كتاب شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الدمشقى أكثر
 كتب العقيدة انتشاراً بين طلاب العلم في الجامعات السعودية بالإضافة إلى
 الواسطية والتدمرية والحوية لابن تيمية ، ويقوم العلماء المحدثون بمحاولة

تأصيل هذا الاتجاه والدفاع عنه فظهرت كتب ورسائل صغيرة للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز والشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، والشيخ محمد بن صالح العثيمين ، والشيخ صالح بن فوزان الفوزان .. وهي كلها تدور حول الأسماء والصفات ، والتحذير من الشرك ، ومفهوم العبادة لله ...

والملاحظ أن هذا الاتجاه السلقي يحمل بعض العنف ويثير نوع تطرف ، فهم لا يتسامحون مع أى اتجاه مخالف ، ويطلقون ألسنتهم بالسوء على كل من هدام ..

فلا فرق عندهم بين الأشعرى والشيعة والشيوعى ..

ولا بين الصوفى والوثنى ..

ولا بين المعتزلى والمجوسى ..

وأكثر الألفاظ استخداماً لديهم ونطقاً بها هى ألفاظ التكفير والتفسيق والتبديع ..

الاتجاه الاعتزالي :

معظم أقسام الفلسفة في الجامعات المدنية تتبنى الاتجاه الاعتزالي ، كما يدافع عنه كثير من تلاميذ المستشرقين الذين درسوا في جامعات أوروبا ..

ومن جهة أخرى فإن هناك صلة قوية بين الاعتزال والتشيع قديماً وحديثاً ، فقد نشأ واصل بن عطاء مؤسس فرقة المعتزلة في بيت محمد بن الحنفية وأخذ عنه العلم ..

وتتلمذ زيد بن علي زين العابدين بن الحسين علي يدى واصل بن عطاء واقتبس منه أصول الاعتزال ..

والتقى الريدية مع المعتزلة في مواجهة الأمويين والعباسيين ..

ولا تزال كتب الشيعة والمعتزلة تشترك في قضايا عقدية كثيرة مثل التوحيد والعدل والقضاء والقدر ..

ومن أعجب الأمور أن كلا من الاتجاه السني والشيعة والاعتزالي يتخذ من الإمام علي بن أبي طالب مبدأ له ..

فعميد القاهر البغدادي^(١) ت ٤٢٩ هـ جعل أول المتكلمين من الصحابة علي بن أبي طالب حيث ناظر الخوارج في مسائل الوعد والوعيد ، وناظر القدرية في المشيئة والاستطاعة ، وذكر المعتزلة^(٢) في صدر طبقتهم الأولى الإمام علي بن أبي طالب ، وقام الفكر الشيعة كله انتصاراً للإمام علي رضي الله عنه ..

* * *

كلمة أخيرة:

وأخيراً فإن لي كلمة أهمس بها في اذن كل داعية ، واضعها أمام كل مسلم وهي:

إن لكل مجتهد نصيباً ، ويجب أن لا يعيب بعضنا على بعض في إطار ضوابط الاجتهاد وحدود معالم الفكر الراشد ..

(١) في كتابه « الفرق بين الفرق » تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد طه مكتبة صبيح .

(٢) راجع كتاب « فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة » تأليف أبي القاسم البلخي والقاضي عبد الجبار والحاكم الجشمي — تحقيق فؤاد سيد طه الدار التونسية للنشر سنة ١٣٩٣ هـ ١٩٧٤

وإذا كنت أيها العالم اجتهدت فوصلت إلى مذهب معين ، أوججت
اتجاهاً خاصاً فدع الآخرين يجتهدون مثلك ويرجعون ما تظمن إليه
نفوسهم ويستقر عليه تفكيرهم طالما جمعتنا كلمة ، لا إله إلا الله ، محمد
رسول الله ، .

وإلا فإنك متسلط تدعى العصمة لنفسك وتقذف بالغيب من مكان
بعيد ..

وتعجبني كلمة للدكتور عبد الحليم محمود - رحمه الله - تؤكدها الأيام
والتجارب ، وأصبحت أكثر وعياً بها بعد أن كنت متردداً في قبولها ، وهي :
لا تزال تلك القوى الثلاث (النسيون والبصيريون والعقليون) تتصارع
حتى عهدنا هذا ، ونعتقد أنها ستستمر ، ذلك أنها تمثل نزعات فطرية في
بنى الإنسان ..

فبعضهم واقعى يتجه إلى النص ولا يريد ، أو لا يمكنه أن يسير إلى
أبعد منه ..

وبعضهم يحتفظ بشخصيته قوية جارفة لاتلين ، فهو عقلى أو اهتزالى .

وبعضهم رقيق الشعور ، مرفف الحس ، ملائكي النزعة فهو بصيرى
أو صوفى ..

نزعات ثلاث تقوم على فطر مختلفة ، وهذه الفطر ستستمر في بنى البشر
مادام على وجه الأرض أفراد من النوع الإنسانى ، ومن هنا كان خطأ
هؤلاء الذين يحاربون التصوف أو الاعتزال أو النسيين ، على أمل أن
يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات قضاء تاماً ، (١) .

(١) المنتقد من الضلاله لحجة الإسلام الغزالي مع أبحاث في التصوف
ودراسات عن الإمام الغزالي للدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٧٣ ط ،
دار الكتب الحديثة سنة ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م

ولتعلم أن الجهد العقلي فيما وراء الطبيعة محدود وضامر ، وأن المسألة
أعمق من أن يحيط بها البشر إحاطة تامة ..

ولقد أدرك المخلصون من العلماء والراسخون من الأئمة أن العجز
عن الإدراك إدراك ، وأن النور الإلهي هو الذي يمنح الحقائق ثباتها
ويقينها ..

ولهذا قال الإمام الرازي :

نهاية إقدام العقول عقـال	وغاية سعى العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال الشهرستاني :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها	وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر	على ذقن أوقار عا سن نادم

وقال أبو المعالي الجويني عند موته :

ها أنا ذا أموت على عقيدة أمي ١١

أو قال : على عقيدة عجمائز أهل نيسابور (١) ١١

وهذا يدفعنا إلى أن يترفق كل منا بالآخر ، ويلتمس له الأهدار ،
ونذع للحوار موضعا ..

وإن الخطر الذي يهدد العقيدة الإسلامية اليوم ليس من داخل الفرق

(١) راجع شرح الفقه الأكبر للملا على القاري ص ١١ طدار الكتب
العلمية - بيروت .

- ٦١ -

الإسلامية وإنما من التيارات الواحفة والمذاهب الهدامة الوافدة التي تسرى مع الهواء وتتشكل حسب الظروف والأحوال ..

ويتمثل ذلك في الثالوث الحديث :

— الخطر الصهيوني .

— الفكر المادى .

— اليسار الإسلامى المزعوم .

وهذا الثالوث أفرخ الانحلال الخلقى وعبادة الشيطان ..

فأخرج المسلمين إلى الاعتصام بمجل الله والاجتهاد المستنير تأصيلاً للعقيدة، واستمساكاً بالوحى، وعروجاً فى سلم الحضارة، وقيادة للبشرية إلى مشرق الحق .. ومطلع النور .. وشاطئ الأمان ..

المبحث الثالث

الإسلام وتقرير العقائد

- المعجزة العقلية .
- أصول التفكير .
- المعرفة والتقليد .
- مصادر العقيدة .
- الحكم وأنواعه .

المعجزة العقلية

يتفرد سيدنا محمد ﷺ من بين سائر الأنبياء بأن معجزة كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يحمل دليله معه وينادي صباح مساء :

« وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ،^(١) .

لقد كان لكل نبي معجزة تتناسب وعصره الذي عاش فيه ، فومى عليه السلام بعث في قوم انتشر فيهم السحر ، فكانت معجزة أن انقلبت عصاه حية تسعى « فإذا هي تلقف ما يأفكون » ، فأدرك سحرة فرعون الفرق بين فعل الخلق وفعل الخالق « فأتى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى » .

وأرسل عيسى عليه السلام إلى قوم برعوا في الطب واشتهروا به فكانت معجزة شيفا فوق طورهم ويعلمو مقدراتهم .

قال الله تعالى :

« ورسولا إلى بني إسرائيل أتى قد جئتكم بآية من ربكم أتى أخلاق لكم من الطين كهية الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا ياذن الله ، وأبرىء الأكمه والابرس وأحيى الموتى ياذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ،^(٢) .

(١) سورة البقرة الآية ٢٣

(٢) د آل عمران الآية ٤٩

ثم كانت أمة العرب ، ولها شأنها في الغلب بالقول ، والبيان في الحجّة ، والسبق إلى امتلاك المشاعر والتأثير الوجداني ، فبعث محمد ﷺ من تلك البيئة ومعه القرآن المجيد فسجدوا له قبل أن يؤمنوا لسمو بلاغته وعظم معانيه ، وتروى كتب السيرة أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدا في قومه قال يوما وهو جالس في نادى قريش :

يا معشر قريش ألا أقوم فأكله وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟

وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزدون ويكثرون .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه .

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال :

يا ابن أخى إنك منا حيث علمت من البسطة في العشيرة ، والمكان في اللسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفّيت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

فقال الرسول : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك ريبا^(١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبترئك منه .

(١) الرّيب - بفتح الراء وكسر ها - ما يترامى للإنسان من الجن .

فلما فرغ عتبة من عرضه قال له الرسول الكريم : فاستمع مني
ثم قرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت
آياته قرآننا هريرا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم
لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن
بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي
أنما ألهمكم إليه واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . »

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرأها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت
لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما حتى انتهى الرسول إلى السجدة
منها فسجد ثم قال :

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

وفي رواية فلما بلغ قوله تعالى « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة
مثل صاعقة عاد وثمود » .

قال عتبة : حسبك حسبك ، وأمسك على فيه وناشده بالرحم ، ثم رجع
إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس ، قالوا ما وراءك ، قال :

ورأى أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر
ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا
بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت
نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فلكم
ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحورك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأي فيه فأصنعوا ما بدا لكم ... (١) .

هذا وحيث كانت رسالة الإسلام خاتمة لمطاف الرسائل الإلهية ، وعامة لجميع الأزمنة والأمكنة ، وخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها — فقد ارتكزت على التفكير العلمي وأشادت بالعقل إذ هو أعدل الأشياء قسمة بين البشر ، ولقد بدى القرآن بتلك الإشراقة الأولى للوحي في قوله سبحانه « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .

هذه الإشراقة الأولى أرشدت إلى بداية الطريق العلمي وهو الأمر بالقراءة والكتابة في قوله « اقرأ » فإن القراءة تستلزم مقروءاً أى مكتوباً .

ثم بينت القانون العام الذى يحكم الطريق وهو أن يسلك باسم الله واهب الملك والملوك ، ثم ألححت إلى أن يكون العلم بحثاً عن حقائق الأشياء ، ورمزت لذلك بالعلق الذى هو أحد أطوار الجنين فى رحم أمه ، وبقوله « ما لم يعلم » من مكتونات نوااميس الأرض والسماء .

وحين اشتد عناد المشركين للدعوة الإسلامية نزل القرآن يقول : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ، ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » (٢) . وحول هذه الآية الكريمة يقول الإمام الزمخشري :

والمعنى إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق ، وهى أن تقوموا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٩٣ ط البابي الحلبي سنة ١٩٥٥

(٢) سبأ ٤٦

لوجه الله خالصا متفرقين اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ، ثم تفتكروا في أمر محمد ﷺ وما جاء به ، أما الاثنان فيتفكروا ويعرض كل واحد منهما محضولة فكره على صاحبه وينظروا فيه نظر متصادقين متناصفين لا يميل بهما اتباع هوى ، ولا يذبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه .

وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ويجارى أحوالهم .

والذى أوجب تفرقهم مثل وفرادى أن الاجتماع بما يشوش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط القول ، ومع ذلك بقل الإنصاف ويكثر الاعتساف ، ويشور عجاج التعصب ، ولا يسمع إلا نصرة المذهب .

وأراهم بقوله « ما يصاحبكم من جنة » أن هذا الأمر العظيم الذى تحته ملك الدنيا والآخرة جميعا لا يتصدى لادعاء مثله إلا رجلان :

إما مجنون لا يبالى باقتضاحه إذا طولب بالبرهان فمجرد بل لا يدري ما الاقتضاح وما رقة العواقب .

وإما عاقل راجح العقل ، مرشح للنبوة ، مختار من أهل الدنيا لا يدعيه إلا بعد محنته عنده بحجته وبرهانه ، وإلا فما يجدى على العاقل دعوى شيء لا بينة له عليه .

وقد علمت أن محمدا ﷺ ما به جنة بل علمتوه أرجح قريش عقلا ، وأزهم علما ، وأثقبهم ذهنا ، وأصلهم رأيا ، وأصدقهم قولا ، وأزهم نفسا ، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به .^(١) هـ .

- ٧٠ -

ولعل هذا الفرق بين المعجزة العقلية لسيدنا محمد ﷺ والمعجرات
الحسية لباقي الأنبياء هو ما أشار إليه المصطفى الكريم عندما قال - كما في
الحديث المتفق عليه - ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات
ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرسل
أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة .

أصول التفكير

من هذا المنطلق أوسى القرآن قواعد البحث وأصول التفكير على النحو التالي :

١ - حرر العقل من رواسب التقليد وعادات البيئة فقال : وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون،^(١) .

٢ - نعى على أتباع الظن والهووى والاسترسال مع الباطل ، فقال : وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً .^(٢) .

٣ - أرشد إلى العناية بحواس الإنسان والحفاظ على سلامة استخدامها ، فقال : ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ،^(٣) .

٤ - أمر بالبحث في ظواهر الطبيعة ونواميس الكون فقال : إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المبخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ،^(٤) .

٥ - لفت النظر إلى قوانين الاجتماع وسنة الله فيما سلف من الأمم

(٢) النجم ٢٨

(٤) البقرة ٦٤

(١) الزخرف ٢٣

(٣) الإسراء ٣٦

وأكد استمرارها، فقال « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » (١) .

وحرصا على هذه الأصول قرر القرآن عقائد الإيمان كلها مدعمة بالحجة والبرهان ، وليس به قضية بلا دليل أو دعوى بلا بينة ، حتى في باب الأدب الخلقى فقال « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » (٢) .

والشعار الذي رفعه القرآن في حجاجه مع المخالفين هو :
« قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » (٣) .
« قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (٤) .

إن القرآن المجيد قد أحصى الجدل الذي دار على عهد النبوة إحصاء دقيقاً ، وفصل الشبهات تفصيلاً كاملاً في الألوهية والوحدانية ، والنبوة والرسالة ، والبعث والنشور ، وأردفها بالدليل والبرهان ، وما على القارىء الكريم إلا أن يفتح المصحف الشريف حيث شاء ليجد صدق ما نقول .
وهذه نماذج لبعض عقائد المخالفين وكيف دفعها القرآن ، أسوقها — كما وردت — آيات بينات :

بالنسبة للدهريين الذين كذبوا بقاء الآخرة وقالوا :

« هيئات هيئات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » (٥) .

(٢) فصلات ٣٤

(٤) النمل ٦٤

(١) آل عمران ١٣٧

(٣) الأنعام ١٤٨

(٥) المؤمنون ٣٦

الرد :

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا، وترى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (١).

وبالنسبة للشركين القائلين :

« أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجيب » (٢).

الرد :

« لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » (٣).

« وما كان معه من إله إذا نذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون » (٤).

وبالنسبة للنصارى القائلين :

« إن الله هو المسيح ابن مريم » (٥).

« إن الله ثالث ثلاثة » (٦).

- | | |
|-----------------------|-----------------------|
| (١) الحج الآية ٥ | (٢) ص الآية ٥ |
| (٣) الأنبياء الآية ٢٢ | (٤) المؤمنون الآية ٩١ |
| (٥) المائدة الآية ٧٢ | (٦) المائدة الآية ٧٣ |

الرد :

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون » (١) .

« ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام ، أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم أنظر أنى يؤفكون ، قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا ، والله هو السميع العليم » (٢) .

-
- (١) سورة آل عمران الآية ٥٩
(٢) سورة المائدة الآية ٧٥

المعرفة والتقليد

تأسيساً على القواعد السابقة اتفقت كلمة جمهور المسلمين على أن عقائد الإسلام في الألوهية والنبوة يجب العلم بها والبحث فيها ببرهان و دليل قاطع، للوصول إلى اعتقاد جازم مطابق للواقع .

ولما كانت الأدلة التفصيلية وردت الشبهات لا تتيسر لكافة الناس قالوا إن المعرفة الإجمالية واجبة على كل مكلف بمعنى أن يسأل المؤمن عن دليله على وجود الله فيقول : هذا العالم أو خروج هذا النبات أو وجود الإنسان .

ويكتفى بذلك من غير بيان للعناقق الصنع وغرائب التدبير ، ومن غير مقدرة على دفع ما يثيره الخصوم .

وإذا كان الإنسان أهلاً للنظر والبحث العلى وجب عليه تفصيلاً معرفة ما يجب وما يجوز وما يستحيل في جانب الألوهية والرسالة .

وهناك بحث طريف بين علماء التوحيد عن أول واجب على المكلف .

وجملة الأقوال اثنا عشر حكاهما الإمام الباجوري في حاشيته هي :

أولها : ما قاله الأشعري إمام هذا الفن أنه المعرفة .

ثانيها : ما قاله الأستاذ أبو إسحق الإسفرائيني أنه النظر الموصل للمعرفة ويعزى للأشعري أيضاً .

وثالثها : ما قاله القاضي الباقلاني أنه أوله النظر أى المقدمة الأولى منه نحو قولك : إن العالم يحدث وكل جاذب لا بد له من محدث ، فيمجموع المقدمتين هو النظر ، والمقدمة الأولى هي أول النظر .

رابعها : ما قاله إمام الحرمين أنه القصد إلى النظر أى تفريح القلب عن الشواغل . وعزى للقاضى أيضا .

خامسها : ما قاله بعضهم أنه التقليد^(١) .

سادسها : أنه النطق بالشهادتين .

سابعها : ما قاله أبو هاشم فى طائفة من المعتزلة وغيرهم أنه الشك .

ورد بأنه مطلوب ذواله لأن الشك فى شىء من العقائد كفر فلا يكون مطلوباً حصوله .

ولعلمهم أرادوا ترديد الفكر فيقول إلى النظر .

ثامنها : أنه الإيمان .

تاسعها : أنه الإسلام .

وهذان القولان متقاربان ، مردودان باحتياج كل من الإيمان والإسلام للمعرفة .

عاشرها : اعتقاد وجوب النظر .

حادى عشر : أنه وظيفة الوقت كعبادة ضاق وقتها فتقدم^(٢) .

(١) ليس معناه الاكتفاء بالتقليد بل هو يبدأ تقليداً للحق ثم يتحتم عليه معرفة الدليل ، فالخلاف هنا فى أول واجب فقط .

(٢) فقد يكون النظر أو النطق أو المعرفة بحسب طبيعة الموقف ، فمن يريد أن يعصم نفسه وماله فالتطق مقدم ، ومن يريد أن يختار ديناً فالتفكير مقدم ، ومن ارتضى ديناً فالمعرفة مقدمة لأنها الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل . وهكذا كن آخر أداء صلاة الظهر مثلاً حتى قارب وقت العصر ، فأول واجب عليه هو أداء صلاة الظهر ، وهى مقدمة على التى مضى وقتها .

ثاني عشر : أنه المعرفة أو التقليد أى أحدهما لا بعينه ، فيكون مخيراً بينهما .

ثم قال الإمام الباجورى : « والأصح أن أول واجب مقصداً المعرفة ، وأول واجب وسيلة قريبة النظر ، ووسيلة بعيدة القصد إلى النظر ، وبهذا يجمع بين الأقوال الثلاثة ، .

هذا وقد أجمع العلماء على نقصان إيمان المقلد الذى يؤمن إيماناً جازماً بالحق فى الإله والنبي دون معرفة دليل تفصيلى ولا إجمالى ، لأن القرآن يقول : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، » (١) .

وغالى بعضهم فزعم أنه لا نجاة معه وأن المقلد كافر لأن المعرفة واجبة وجوب الأصول ، وأن الأمر القرآنى صريح بالعلم وليس بالإيمان وحده ، قال تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله ، » (٢) .

وقد يتساءل إنسان ويقول :

دع عنك هذا التشدد ، ولسنا فى حاجة إلى كل هذه التعقيدات فإن دين الله يسر ، وغاية جهدنا أن نصل إلى إيمان لإيمان العوام ، وقد كان صحابة رسول الله ﷺ مقلدين لا شأن لهم بدليل أو برهان ، وما علم الرسول أحداً دليلاً على وجود الله .

وأقول : رويدك يا أخى . . . ١١ .

إن الأعرابى فى باديته لا يضارعه الآن من يحمل أعلى الشهادات فى اللغة والأدب ، هذا الأعرابى قال فى جاهليته : البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على العلم الخبير .

كذلك سجد هذا الأعرابي للقرآن المجيد قبل أن يؤمن ، وهرف
أمراره البلاغية وإعجازه البياني .

هذا العقل الفطري تلقى هدايات القرآن فأمن بها عن اقتناع ، فهذا
الأمين محمد ما عرف منه كذب ، وهذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ، وهذه
الكواكب الساهرة لا بد لها من مكوكب ، والدين الذي جاء به محمد يأمر
بالمعروف وينهى عن المنكر ، كما قال جعفر بن أبي طالب لنجاشي
الحبشة :

أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي
الفواحش ونقطع الرحم ونسئ الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ..
فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته
وعفافه ، فدعانا إلى الله — عز وجل — لنوحده ونعبده ونفزع ما كنا
نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق
الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم
واللهماء، ونهانا عن الفواحش وشهادة الزور وأكل مال اليتيم وقذف
المحسنة ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا — وأخذ يعدد أمور
الإسلام — فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ... (١) .

هكذا تكلم جعفر بن أبي طالب في صدر الإسلام يوم هاجر المسلمون
إلى الحبشة ، ولا أظن إنسانا أسلم أمام المصطفى الكريم ﷺ إلا وتعقل
هذه المعاني كلها .

إن الإسلام يوم دعا الناس في مكة إلى عقائده لم يكن لديه مقررات
مادية ، فالحق وحده له سنائوه وصولاته ، بل لقد رفض منطق المساومة

(١) السيرة النبوية لابن هشام - ١ - ص ٣٣٦

وتخطى موقف الترغيب المادى السخى، وانحنى التاريخ وهو يستمع لسيدنا محمد ﷺ قائلاً: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وحين حاولت أم سعد بن أبي وقاص صرف فلذة كبدها عن هذا اللبن الجديد وأضربت عن الطعام والشراب كي تموت صبراً ، ويعير بها ولدها إن لم يرجع ، قال لها بلسان المؤمن على بصيرة : والله يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا ، فكلي أو لا تأكلي .

ولقد ذاق المسلمون ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد، إبتداء من التعذيب الفردي، إلى الحصار الاقتصادى لجماعة المؤمنين مدة ثلاث سنين في شعب بالجبل أكلوا خلالها أوراق الأشجار ، فما وهوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فهل كان ذلك كله ناشئاً عن تقايد أعمى وانسياق مجرد وارتجال ساذج ؟

سبحانك هذا بهتان عظيم .

لقد رفض القرآن منطق الإكراه في الدين فالإكراه لا يغير ما استقر عليه القلب من إيمان أو كفر، فمن أكره على الإيمان فهو كافر، ومن أكره على الكفر فهو مؤمن ، قال الله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » (١) .

وكذلك رفض القرآن إيمان الإلجاء والاضطرار دون وعى وبصيرة وذلك عندما تعنت المشركون وألغوا عقولهم :

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجير لنا من الأرض يدبوا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجير الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لقيلك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه » (١) .

وفي رفض منطق الإلجاء يعلل القرآن المجيد هذا الرفض بعدة أمور منها :

أولاً : أن النبوة في حقيقتها اصطفاء من الله وتكليف لعبده في تبليغ رسالات الله وليس له من الأمر شيء وأن الله هو وحده الذي يده تصريف الأمور ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » (٢) .

ثانياً : أن الرسالة الخاتمة التي بعث بها سيدنا محمد ﷺ تخاطب العقل الراشد الذي تمرص على مدى الأجيال ، ووعى عبرة القرون والتواريخ ، وفي ذلك يقول القرآن : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة فظلوا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً » (٣) .

ثالثاً : أن الإيمان المعتبر شرعاً هو الإيمان الاختياري القائم على الحجة وليس إيمان الدهشة أو الاستهواء .

ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى : « لعلك باخع نفسك أن لا يكون مؤمنين ، إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أحناقهم لها خاضعين » (٤) .

-
- | | |
|---------------------------|---------------------------|
| (١) سورة الإسراء الآية ٩٠ | (٢) سورة الإسراء الآية ٩٣ |
| (٣) سورة الإسراء الآية ٥٩ | (٤) سورة الشعراء الآية ٣ |

وعمالاشك فيه أن الصحابة جميعاً تلقوا القرآن من فم رسول الله ﷺ وعقلوه، وأدركوا مقاصده وهم الذين شاهدوا النبوة في لآلائها وما ينوا المعجزات وسايروا الوحي في تشريعه، ولمسوا الحقيقة عن قرب، ولذلك كانوا خير القرون !

يقول ابن العربي - كما نقله في العقيدة الصغرى للسنوسى :

اعلموا - عليكم الله - أن هذا العلم المكلف به لا يحصل ضرورة^(١) ولا إلهاماً^(٢)، ولا يصح التقليد فيه^(٣)، ولا يجوز أن يكون الخبر^(٤) طريقاً إليه، وإنما الطريق إليه النظر، ورسمه^(٥) أنه الفكر المرتب في النفس، على طريق يفضى إلى العلم أو الظن، يطلب به من قام به علماً في العلميات^(٦) أو غلبة ظن في المظنونات^(٧).

ولو كان هذا العلم يحصل ضرورة لأدرك ذلك جميع العقلاء، وألهاماً لوضع الله تعالى ذلك في قلب كل حى ليتحقق به التكليف، وأيضاً فإن الإلهام نوع ضرورة وقد أبطلنا الضرورة^(٨).

(١) بلا نظر واستدلال.

(٢) الإلهام إلقاء الله شيئاً من الخير في القلب بطريق الفيض.

(٣) التقليد الأخذ بقوله الغير بلا معرفة للدليل.

(٤) الخبر هو النص الشرعى من الكتاب والسنة والمراد ما عدا السمعيات التى طريقها التلقى عن المعصوم بما لا مجال للاجتهاد فيه.

(٥) رسمه أى رسم النظر وتعريفه.

(٦) العلميات أى العقائد.

(٧) المظنونات مسائل الفروع الفقهية.

(٨) فى قوله : ولو كان هذا العلم يحصل ضرورة لأدرك ذلك

جميع العقلاء.

(٦ - التمهيد)

ولا يصح أن يقال إنه تعالى يعلم بالتقليد - كما قال جماعة من المبتدعة -
لأنه لو عرف بالتقليد لما كان قوله واحد من المقلدين^(١) ، أولى بالاتباع
والانقياد إليه من الآخر ، كيف وأقوالهم متضادة ومختلفة .

ولا يجوز أيضاً أن يقال إنه يعلم بالخبر لأن من لم يعلم الله تعالى كيف
يعلم أن الخبر خبره .

ثبت أن طريقه النظر ، وهو أول واجب على المكلف ، إذ المعرفة
أول الواجبات ولا تحصل إلا به ، فبضرورة تقديمه عليها تثبت له صفة
الوجوب قبلها ، وإيجاب المعرفة بالله معلوم من دين الأمة ضرورة ..
ا . هـ (٢) .

(١) المقلدين بفتح الدال - اسم مفعول .
(٢) حاشية على شرح أم البراهين ، تأليف محمد بن أحمد بن عرفة
الهمداني المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ وبهامشه شرح أم البراهين لمحمد بن يوسف
السنوسي الحنفي ص ٥٨ مطبعة الحلبي سنة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ .

مصادر العقيدة

العقيدة هي التي تتعلق بقضايا الوجود الكبرى في المذات الإلهية والنبوة والبعث ، والتي يتوقف عليها الإيمان والكفر ، فمن أيقن بها وصدق وأذهن فهو المؤمن ومن أنكر وكذب وارتاب فهو الكافر ..

هذه العقيدة يحكمها العقل ويصحح مسارها الوحي ممثلا في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ..

العقل :

إن العقيدة — في المقام الأول — عقل ، وما لم تكن عقلا فليست بدين صحيح ، والذين يطعمسون معالم العقل في العقيدة إنما يفتحون أبوابا للشيطان، تسوقهم إلى الوثنيات والخرافات والكهوت الأسود والطلاسم العمياء ..

فالعقل هو مناط التكليف الشرعي ، وإذا سلب الله ما وهب من العقل سقط ما وجب من الشرع ، ولا دين لمن لا عقل له .. إن العقل وحده هو الذي يثبت وجود الله تعالى وكماله اللائق بذاته المقدسة .

وإن العقل وحده هو الذي يثبت الوحي والاصطفاء للأنبياء بدلالة المعجزة ، فما لم تكن معجزة يقر بها العقل فلا نبوة ..

والذين يجعلون الأخلاق العظيمة والأحوال الشريفة للأنبياء بدلا عن منطق العقل وأهمون . فليس كل صاحب خلق يكون نبيا .. وإن العقل هو الذي يقدم دليل الجواز والإمكان لما وراء الطبيعة من أمور البعث ، ولو كانت منافية لمقتضى العقول ما كاف الله بها البشر ، وما قبلها العقل ..

القرآن :

نحن لانأله العقل ولا نمنحه أكثر مما هيأه الله له ، بل نضعه في موضعه الصحيح ، ولا نقول إن العقل يستقل بالعقيدة كلها بل يحتاج إلى نور الوحي مثلاً في القرآن الكريم ليقدم للإنسان الصورة الصحيحة للوجود الإلهي الأعلى وأسماء الله الحسنى وصفاته المقدسة ، وليرشده إلى المنهج في عبادة الحق ومعاملة الخلق ..

وليفصح له عن المستقبل والمصير الإنساني في البعث والحشر والحساب والجزاء ..

وليقص القصص الحق عن تاريخ الأنبياء وأصول رسالاتهم ومناهج دعوتهم ..

والقرآن قطعي الثبوت متواتر ، محفوظ بعناية الله جيلاً بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تحقيقاً للوعد الإلهي « إنا نحن نزلنا الذكور وإنا له لحافظون ، »^(١).

لكن معاني القرآن قد تكون قطعية وقد تكون ظنية ، فما كان قطعي الهدلالة فهو عقيدة يترتب عليها الإيمان والكفر ، مثل قوله تعالى « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وما كان ظني الهدلالة فليس بعقيدة حتمية بل يجوز حولها الاجتهاد وذلك كالصفات الخبرية التي جاءت في آيات التنزيل الحكيم مثل قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى »^(٢) وقوله جل شأنه « فإنك بأعيننا »^(٣) ..

(١) سورة الحجر — الآية ٩

(٢) طه — الآية ٥

(٣) الطور — الآية ٤٨

فهذه الآيات وأمثالها وإن كانت قطعية الثبوت غير أن دلالتها ظنية .

السنة :

تعد السنة النبوية مصدرا من مصادر العقيدة إلا أن مرتبتها بعد القرآن المجيد ، لأن أغلبها أحاديث آحاد لم تبلغ مبلغ التواتر . .

وجمهور العلماء على أن أحاديث الآحاد لا تفيد القطع ولذا يجب العمل بها في العبادات والمعاملات لأنه يكتفى فيها بالظن القالب . .

أما العقائد في الإلهيات والنبوات والسمعيات فلا يترتب على ما يثبت بالسنة إيمان أو كفر ، لأنها ظنية الثبوت حتى ولو كانت قطعية الدلالة . .

فإن تطرق الظن للثبوت أو الدلالة يرفع اليقين ، فلا يصبح الأمر الثابت بالظن عقيدة يتحتم الالتزام به ، وتصدر على أساس منه أحكام الإيمان والكفر . .

وقد نهى الله تعالى أشد النهى عن اتباع الظن في العقائد فقال : « إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بهامن سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » ، (١) .

وتوعد المولى سبحانه أصحاب العقائد الواهمة بالخزي في الدنيا والنكال في الآخرة فقال : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانی عطفه ، ليضل عن سبيل الله ، له في الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » ، (٢) .

(١) سورة النجم — الآية ٢٣

(٢) الحج — الآية ١٠٨

وينبغي العلم بأن التوقف في قبول خبر الأحاد ليس رداً للحديث رسول الله ﷺ ، وإنما هو توقف في نسبته إلى الرسول الكريم ،

وقد تعلمنا في مصطلح الحديث أن معنى الحديث الصحيح هو ما اتصل سنده بالعدول الضابطين من غير شذوذ ولا علة ، وليس مراداً به القطع واليقين بصدوره عن رسول الله ﷺ فقد يكذب الصدوق... وأن معنى الحديث المردود هو ما لم يتصل سنده بالعدول الضابطين... الخ وليس مراداً به القطع واليقين بعدم صدوره عن الرسول ﷺ فقد يصدق الكذوب (١) ١١.

ومن هنا فلا محل لقوله القائل :

«والعاقل يعلم أن الرسول معصوم في خبره عن الله تعالى ، لا يجوز عليه الخطأ ، فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره، وقد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول : هذا القرآن الذي تلقيه علينا، والحكمة التي جئتنا بها قد تضمن كل منها أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا ، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا ، فلو قبلنا جميع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قد حاق بنا علمنا به صدقك ، فنحن نعتقد موجب العقول الناقضة لما ظهر من كلامك ، وكلامك معرض عنه ، لا نتلقى منه هدياً ولا علماً ..

لم يكن مثل هذا الرجل مؤمناً بما جاء به الرسول ، ولم يرض منه الرسول بهذا .

بل يعلم أن هذا لو ساغ لما أمكن كل أحد أن يؤمن بشيء مما جاء به

(١) راجع تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للإمام السيوطي ، تحقيق د. عبد الوهاب عبد اللطيف ج ١ ص ٧٥ ط الثانية سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م دار الكتب الحديثة

الرسول ، إذ العقول متفاوتة ، والشبهات كثيرة ، والشياطين لا تزال تلقى الوسوس في النفوس ، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا في كل ما أخبر به الرسول وما أمر به ، (١) .

هذا الكلام فيه مغالطة ، لأنه لا أحد يطعن في عصمة الرسول ﷺ ولا في صدق خبره وإلا ما كان مسلماً أصلاً ، وإنما المسألة كلها في إثبات الحديث ونسبته إلى الرسول ..

والظن ليس في قول الرسول وإنما الظن في نسبة القول إلى الرسول ، والفرق واضح وكبير ..

ثم إن افتعال معركة بين الشرع والعقل ليس في دين الإسلام ، فلا تناقص بين الشرع والعقل ، وصدق الله حيث يقول ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، (٢) .

وهناك مؤلفات كثيرة حول هذه القضية منها :

• فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، لابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ) .

• درء تعارض العقل والنقل ، لابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) .

إن العلاقة بين الشرع والعقل علاقة متلازمة ، لا انفصال بينهما ، وإن الحقيقة لا تتراعى إلا بهما معاً ..

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزّ الدمشقي ص ٢٢٠ ط المكتب الاسلامي سنة ١٣٩٩ هـ .

(٢) سورة النساء - الآية ٨٢ ، ونحن في دراستنا للعقيدة قبلنا خبر الواحد تغليبا لحسن الظن مالم يعارض قاطعاً عقلياً أو شرعياً ، ومقصودنا هو تضيق شقة الخلاف ، ومنع أحكام التكفير ، ودعوة جميع الفرق إلى الحوار ..

وقد عبر عن ذلك الإمام أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) فقال :
بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد ، والاعتقاد
على الصراط المستقيم ، فكلما طرفى قصد الأمور ذميم ..

وأني يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر ، وينكر مناهج
البحث والنظر ، أو يعلم أنه لامستند للشرع إلا قوله سيد البشر ﷺ ،
وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه فيما أخبر ١٤

وكيف يهتدى للصواب من اقتنى محض العقل واقتصر ، وما استضاء
بنور الشرع ولا استبصر ١٥

فليت شعري كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العي والحصر ،
أولا يعلم أن خطأ العقل قاصر وأن مجاله ضيق منحصر ١٦

هيئات قد خاب على القطع والبنات ، وتعر بأذياله الضلالات من لم
يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات ..

فثال العقل البصر السليم عن الآفات والآذء ، ومثاله القرآن الشمس
المنتشرة الضياء ، فأخلق بأن طالب الاهتداء ، المستغنى إذا استغنى
بأحدهما عن الآخر — في غمار الأغبياء ..

فالمعرض عن العقل مكثفيا بنور القرآن ، مثاله المعرض لنور
الشمس مغمضا للأجفان ، فلا فرق بينة وبين العميان ..

فالعقل مع الشرع نور على نور (١) ..

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ص ٣ ط مكتبة صبيح سنة ١٣٨٢ هـ —

أقوال السلف :

ما وراء القرآن والسنة فأراء بشرية لأشخاص غير معصومين ،
يؤخذ منها ويرد عليها ، وقد تسمى أقوال السلف أو أقوال الصحابة
أو أقوال التابعين ..

والذين يبنون عقائدهم على هذه الأقوال يحتاجون إلى تنبيه مهم ، فإن
هذه الأقوال لم تخضع لمقاييس الضبط وأصول النقل وقواعد الإسناد
التي خضع لها الحديث الشريف ، اللهم إلا ماندر منها ..

ومع التسليم الجدلي بصحة الإسناد فإن هذه الأقوال قد تكون
منقولة عن أخبار وأخبار أهل الكتاب ، ونحن لا نصدق أهل الكتاب
ولا نكذبهم فيما لا يخالف نصوصنا الشرعية ، ونرفض ما خالفها ..

وفي صحيح البخارى قال ابن عباس رضى الله عنهما :

كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذى أنزل على
رسول الله ﷺ أحدث ، تقرأونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل
الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا
هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ١٥

ألا إنها كم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ١٦

لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم ، .

وفي البخارى أيضاً :

كان أهل الكتاب على عهد رسول الله ﷺ يقرأون التوراة
بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال عليه الصلاة
والسلام :

لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ..

وقد تكون أقوال السلف آراء اجتهادية قالوها بأنفسهم ، ولعل كل مجتهد نصيب ، وهم رجال ونحن رجال وإن كان فضاهم في السبق ونصرة الدين عند الله عظيما ..

وقد تكون أقوالهم آراء لا مجال للاجتهاد فيها ، ولها حكم الرفع إلى رسول الله ﷺ ، ولكنها أدنى درجة من الرفع الصريح ، ومع ذلك فهي لا تخرج عن كونها أحاديث أحاد لا تثبت بها عقيدة يترتب عليها إيمان أو كفر ..

إن أمة الإسلام لا تقدر أحداً من البشر ، واسم القدوس من الأسماء الحسنى لله تعالى ..

ونحن نحترم السلف الصالح ونجلهم وندعو لهم التزاماً بقول الله تعالى :
«والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم» (١)

ورحم الله ابن مسعود حين قال :

« من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد ﷺ ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم ،

إن التأسي بالسلف الصالح محمداً وشرفاً ، لكن التأسي لا يعنى عصمتهم ولا حجية آرائهم واجتهادهم في عقائد الدين ، وإن هناك فرقاً واضحاً وجلياً بين ما هو عقيدة يجب فيها القطع واليقين ، وبين ما هو عمل يكتفى فيه بغلبة الظن ورجحان الدليل ..

الحكم وأنواعه

من الأمور ذات الأهمية التي توضح تقرير العقائد في الاسلام - أن العلماء على اختلاف مشاربهم يستخدمون الحكم العقلي في قضايا العقيدة، ويحتجون بها في بحوثهم الإيمانية، فيقولون : هذا الأمر واجب ، وهذا الشيء مستحيل ، وذلك جائز أو ممكن ..

ولولا أن للعقل أحكاما يتفق عليها العقلاء ويأتم بها العلماء ما شاع ذلك وساغ في علم العقيدة ..

ونحن نوضح هذه المسألة على النحو التالي :

أقسام العلم :

العلم في اصطلاح المنطقيين يراد به عموم الإدراك ، وهو تحصيل صورة الشيء في العقل ..

وهو قسمان : تصور وتصديق :

(أ) التصور: هو حصول صورة الشيء في الذهن من غير حكم عليه ..

مثاله إدراكنا للمفرد : محمد .

والمضاف : كتاب خاله

والمركب الوصفي : المهندس الماهر

فالذهن يتصور شخصية محمد أو كتاب خاله أو مهارة المهندس ، لكن يظل متطلعا إلى ما تتم به الفائدة ، فإذا نحن محمد ؟ هل هو مسافر أو مقيم أو شجاع أو صادق ... إلخ ؟

- ٩٢ -

وماذا عن كتاب مخالف؟ هل هو مفيد أو ضار، أو كبير أو صغير... إلخ؟

وماذا عن المهندس الماهر؟ هل يحبه الناس أو يحترمونه أو يسألون عنه...؟

(ب) التصديق: هو إسناد أمر لأمر إيجاباً أو سلباً..

مثاله: محمد رسول الله، في حال الإيجاب

كتاب مخالف لم يصل، في حال السلب

والتصديق هو إذعان للنسبة أى إدراك للرابطة بين طرفي القضية، يصل إلى التسليم والقبول، وقد يكون مطابقاً للواقع كقولنا: انتصر صلاح الدين على الصليبيين، وقد يكون مخالفاً للواقع مثل: انتصر جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٧ م..

وقد يكون التصديق ناشئاً عن دليل كقولنا: الله واحد لا شريك له. وقد يكون مجرد تقليد كقوله النصارى: الله ذو أقانيم ثلاثة، فهذه القضية كاذبة مخالفة للواقع واعتقاد النصارى لها اعتقاد ناشئ عن تقليد لا دليل عليه..

• • •

الحكم الشرعى:

هو خطاب الله تعالى المتعلق بفعل المكلف من حيث إنه مكلف.. وأقسام الحكم الشرعى خمسة هى:

١ - الوجوب إن اقتضى الخطاب الفعل اقتضاءً جازماً..

مثل: أقيموا الصلاة، فالأمر هنا للوجوب.

- ٢ — الندب إن اقتضى الخطاب الفعل اقتضاء غير جازم ..
 مثل : أفتشوا السلام ، فالأمر هنا للندب
- ٣ — التحريم إن اقتضى الخطاب ترك الفعل اقتضاء جازما ..
 مثل : لا تقربوا الزنا ، فالنهي هنا للتحريم
- ٤ — الكراهة إن اقتضى الخطاب الترك اقتضاء غير جازم ..
 مثل : النهي عن الصلاة في أوقات معينة أو النهي عن قراءة القرآن في
 الركوع والسجود ..
- ٥ — الإباحة إن اقتضى الخطاب التخيير بين الفعل والترك ..
 مثل : أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ..
 قال الإمام السبكي صاحب متن جمع الجوامع :
 والفرض والواجب مترادفان ، خلافاً لآبي حنيفة ، وهو لفظي .
 والمندوب والمستحب والتطوع والسنة مترادفة ، خلافاً لبعض
 أصحابنا ، وهو لفظي (١) .
- فالحكم الشرعي مرتبط بالنص الديني ودلالته ، وقد قامت الشريعة
 على هذه الأحكام التي فصلها علم الفقه وأصوله ..

• • •

الحكم العقلي :

هو إسناد أمر لأمر إيجاباً أو سلباً من غير توقف على عادة أو استناد
 إلى شرع بل يكون العقل وحده هو الفيصل في هذا الحكم ..

(١) مجموع مهمات المتون ص ٨٧ دار الكتب العلمية — بيروت

وينقسم الحكم العقلي إلى ثلاثة أنواع :

١ - الواجب : هو الموجود الذي لا يتصور العقل عدمه ..
مثل : الله عالم .

فثبت العلم لله تعالى حكم عقلي واجب أزلا وأبدا، ولا يمكن تصور الانفصال بين العلم والذات الإلهية .

٢ - المستحيل : هو المعدوم الذي لا يتصور العقل وجوده ..
مثل : شريك الله موجود .

فإثبات الوجود لشريك الله تعالى مستحيل، لأن الشريك معدوم لا يتصور العقل وجوده أزلا ولا أبدا ..، والعقل حاكم بأن تعدد الآلهة باطل مستحيل ..

٣ - الجائز أو الممكن : هو ما يتصور العقل وجوده تارة وعدمه أخرى ..

مثل : العالم موجود .

فلإثبات الوجود للعالم يمكن أو جائز، لأن العقل يتصور العالم معدوما مرة وموجودا أخرى، فالإنسان يموت ويحيا، والشمس تشرق وتغرب، والقمر يطلع ويغيب، والنبات ينمو ويندثر، والمطر ينزل وينقطع، والحريش يذبل ويؤكل، والبحر يعتريه المد والجزر، وهكذا كل شيء في هذا الوجود، والذي يقبل الوجود والعدم هو الممكن أو الجائز العقلي ..

الحكم العادي :

ويدخل في الجواز العقلي الحكم العادي المبني على العادة أو التكرار، فما قد نسميه واجبا في العادة أو مستحيلا في العادة هو جائز عقلا، يقبل الوجود تارة والعدم أخرى ..

— ٩٥ —

فإذا قلنا: النار محرقة بناء على أن العادة جرت بأن النار تحرق ما يجاورها وتكرر ذلك كثيرا، فهذا حكم عادي واجب، لكن هل ثبوت الإحراق للنار لأنها سبب فيه أو علة مؤثرة؟

هنا تأتي نظرية السببية، ويقول أهل السنة إن الفاعل هو الله وحده، ولا مؤثر في الوجود غيره، وثبوت الإحراق للنار على طريق السببية والعادة وهو غاية ما يثبت به الحس الظاهر من الاقتران بين الإحراق والنار.

وإذا قلنا: يستحيل رؤية من في المشرق لمن في المغرب فهذا حكم عادي يجوز تخلفه، وقد كان الأقدمون يجعلون هذه الاستحالة عقلية لكن الحس المشاهد الآن يبطل ذلك فأكثر أجهزة التليفزيون والآلات الصناعية التي تنقل الناس إلى مواقع الأحداث لحظة بلحظة ..

فكل ما أثبتته التجربة أو جاء به التكرار هو حكم عادي يلحق بالجائز العقلي الذي يمكن تخلفه .. وكما من تجارب أثبتتها العلماء بالأمس ونقضوها اليوم، وكما من أحكام بليت على تكرار ثم تخلفت ..

• • •

والاحكام في علم العقيدة ترتبط بالحكم العقلي بأنواعه الثلاثة من الوجوب والاستحالة والجواز، ويستخدم ذلك في مباحث العلم من الإلهيات والنبوات والسمعيات .. فيقال في الإلهيات :

يجب لله تعالى كل كمال ..

ويستحيل عليه تعالى كل نقص ..

ويجوز في حقه تعالى فعل كل ممكن وتركه ..

ويقال في النبوات :

يجب للأنبياء الصدق والأمانة والتبليغ والفظانة ..

- ٩٦ -

ويستحيل عليهم الكذب والخيانة والكتمان والبلادة ..
ويجوز في حقهم ما يجوز على سائر البشر مما لا يقدر في نبوتهم ..
ويقال في السمعيات :

إن عذاب القبر ونعيمه والحشر والبعث والميزان والصراط أمور
جائزة عقلا ، وود بها النص الشرعي فيجب الإيمان بها ..
فهي أمور لا يحيلها العقل ولا يوجبها فتبقي في دائرة الإيمان العقلي ،
فإذا جاء الخبر الصادق عن المعصوم بشبوتها وجب الإيمان بها فالمدار على
صدق الخبر ..

المبحث الرابع

خصائص العقيدة الإسلامية

- صوت الفطرة
- دعوة الأنبياء
- توحيد القرآن
- الدين الخالص
- آفاق عقيدة التوحيد :
- أفق الاسم
- أفق العلم
- أفق الوجدان
- أفق الاجتماع
- أفق الذكر

صوت الفطرة

العقيدة الإسلامية تتلخص في كلمتين اثنتين هما :

لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

وهذه العقيدة من الوضوح والبسر ، ومن العمق والحكمة ، ومن الصدق والحق ما يجعلها قسرى في كيان الإنسان سريان الدم في العروق ، وتغلغل في أعماقه فتستقر في قرار مكين من قلبه وعقله ..

فهي قضية فطرية ينادى بها الإنسان في ظلمات البر والبحر ، ويهتف بها وسط أمواج الحياة ، وتربطه بمخلوقات الله العديدة والعجيبة في منظومة روحية تنطق بلسان لا ترد حجته :

(ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير) (١) .

ورسالة سيدنا محمد ﷺ أوضح من الشمس في رابعة النهار ، فقد أدهى النبوة ، وأيده الله بالمعجزات ، وأجرى على يديه خوارق العادات ، واجتمع له ﷺ من شرف النسب ، وعطر السيرة ، وكرم السجايا ما لا يجتمع إلا لبشر يوحى إليه ، وإنسان اصطفاه الله للنبوة .

هذا وقد أخذت قضية الفطرة بحثاً لدى اللغويين والمناطق وأهل العقيدة ..

فماذا تقول اللغة؟

وماذا يرى المنطق؟

وماذا تريد العقيدة؟

اللغة تقول :

فطر الله الخلق، وهو فاطر السموات أى مبتدعها ..
 (وكل مولود يولد على الفطرة) أى على الجبلة القابلة للدين الحق ...
 وفطر هذا البئر ، وفطرت اليد والثوب ، تشققت ..
 وفطر ناب البعير : طلع .
 وفطرت المرأة العجيز : خبزته من ساعته قبل أن يختمر ..
 وجلد فطير : لم يلق في الدباغ ..
 وكلام يفطر الصوم : أى يفسده ..
 وإذا غربت الشمس فقد أفطر الصائم : أى دخل وقت الفطر ..

ومن المجاز :

لاخير في الوأى الفطير (المتسرع الذى لم يختمر ولم يناقش بروية) ..
 وتقول : وأيه فطير ولبه مستطير^(١) .

وعلم المنطق :

يقسم القضايا إلى يقينيات وغير يقينيات ..
 واليقين هو اعتقاد أن الشيء كذا اعتقاداً يقينياً مطابقاً للواقع ..
 والقضايا اليقينية تنقسم منطقياً إلى ضروريات ونظريات ..

(١) أساس البلاغة للإمام الزنجشى ص ٧٦ ط دار الفكر للطباعة

والنشر .

والضرورى - وقد يسمى البديى - : ما لا يتوقف حصوله في
الذهن على كسب ونظر واستدلال ..

والنظرى : هو الذى يحتاج إلى كسب ونظر واستدلال ..

ومن القضايا الضرورية أو البديهية - الفطريات والأوليات ..

والفطريات : هى القضايا التى يحكم فيها العقل بمجرد تصور الطرفين
بواسطة لا تغيب عن الذهن ، وتسمى قضايا قياساتها معها ، مثل : الأربعة
زوج .

فإن من تصور الأربعة وتصور الزوجية ترتب في ذهنه قياس في
الحال هو : الأربعة منقسمة إلى متساويين ، وكل ما كان كذلك فهو زوج ،
إذن الأربعة زوج .

والأوليات : هى القضايا التى يحكم العقل بها بمجرد تصور الطرفين
بلا واسطة مثل : الكل أعظم من الجزء ، فإن من تصور الكل وتصور
الجزء حكم عقله بأن الكل أعظم من الجزء دون واسطة ، فالعقل وحده
هو الحاكم هنا (١) ..

وبعض الباحثين يقول :

وجود الله تعالى أمر بدهى لا ينبغى أن يتحدث فيه المؤمنون نفياً
أو إثباتاً ، ولا سلباً أو إيجاباً .

إن وجود الله من القضايا المسئلة التى لا توضع في الأوساط البديهية
موضع البحث لأنها فطرية ، وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث

(١) تفسير القواعد المنطقية ، د. محمد شمس إبراهيم ص ٢٦٧

إنما هو شخص في إيمانه دخل ، وفي دينه انحراف ، فما خفي الله قط حتى يحتاج إلى أن يثبتته البشر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . .

ومن المعروف أن الدين الإسلامي لم يجرى لإثبات وجود الله وإنما جاء لتوحيد الله ، وإذا تصفحت القرآن أو التوراة حتى على وضعها الحالي، أو الإنجيل حتى في وضعه الراهن ، فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت في أي سفر منها مكانة تجعلها هدفاً من الأهداف الدينية ، أو احتلت مكاناً يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية . .

والقرآن الكريم يتحدث عن بدهة وجود الله حتى عند ذوى العقائد المنحرفة ، يقول سبحانه . « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، » (١) .

إنهم يقولون إن الخالق هو الله ، مع أنهم مشركون أو منحرفون بوجه من الوجوه في إيمانهم بالله تعالى ، وما نزلت الأديان قط لإثبات وجود الله وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد في الله أو لتصحيح طريق التوحيد . . أما الآيات الكثيرة التي يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود فليست من ذلك في قليل ولا في كثير ، إنها تبين عظمة الله وجلاله وكبريائه وهيئته الكاملة على العالم ، ما عظم من أمره ودق منه ، لا تفوت هيئته صغيرة ولا كبيرة ، ولا يخرج عن سلطانه ما دق وما جل ، » (٢) .

(١) سورة لقمان الآية ٢٥ .

(٢) الإسلام والعقل - د . عبد الحليم محمود ص ٩٦ ط دار الكتب الحديثة .

وهذا المعنى بعينه هو ما ذهب إليه أنصار الاتجاه السلفي فهوى شارح الطحاوية ابن أبي العزّ الهمشقي أن الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم ، وأن توحيد الربوبية لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم^(١) .

ونحن نقول :

إن قضية وجود الله تعالى قضية فطرية بمعنى وضوح الأدلة وكثرة الشواهد واتساع آيات الأنفس والآفاق .. ومتى خلص العقل من شوائب التقليد وعادات البيئتين السيئتين ورواسب التفكير المنحرف - وصل إلى حقيقة الحقائق - ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ،^(٢) .

ولا يمكن بحال من الأحوال أن نرفض الاستدلال على قضية وجود الله تعالى ، ونصمم آذانتنا وأسماعنا عن شبهات المنكرين في كل زمان ومكان ، الذين يرفضون الوجود الإلهي الأعلى .. فإذا نفعل مع ملايين البشر قديماً وحديثاً من الدهريين والملاحدة والشيوعيين وأصحاب المذاهب الهدامة ١٩ .

وإذا كان القرآن المجيد قد تحدث عن اعتقاد المشركين بخلق الله تعالى للسموات والأرض في مثل قوله جل جلاله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، فهذا ليس عاماً ، فهو حديث عن جماعة من الوثنيين ، عبدوا الأصنام زلّوا إلى الله ، فوقعوا في التناقض حين أقروا الله تعالى بالخلق وتوجهوا لغيره بالعبادة ، فالقرآن يخاطب كل ملة ونحلة بما يدحض اعتقادها .

(١) راجع شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٧ ، ٨٥ ط المكتبة

الإسلامي سنة ١٣٩٩ هـ

(٢) سورة الحج - الآية ٦٢

وإذا كان القرآن قد تحدث عن اتخذته ولدا فهل معنى ذلك أن كل الناس يتخذون لله أولاداً ؟ ١٤

وإذا كان القرآن قد تحدث عن عبدة الكواكب فهل يفهم من ذلك أن كل الناس عبدوا الكواكب ؟ ١٥

وإذا كان القرآن قد تحدث عن رفض النبوة للبشر فهل يعنى ذلك أن كل الناس يرفضون بشرية الأنبياء ؟

إن لكل حديث مجاله ، ولكل اتجاه ما يناسبه ، ولا يجوز أن يخرج الكلام عن سياقه ومراميهِ .

لقد أشار القرآن إلى مذاهب منحرفة تعادل في الله بغير علم وتوكل الوجود الإلهي الأقدس ، فقال الله تعالى :

« ألم يأتكم نبيّ الذين من قبلكم ، قوم نوح ، وحاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم 'إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ، قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ١٦ .

قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، (١٧) .

ففي هذا النص الكريم تأكيد أن أما كثيرة رفضت دعوة الأنبياء وشكوا في وجود الله تعالى وأعلنوا رأيهم ذلك . وواجههم الأنبياء بوضوح الأدلة وافتوا عقولهم إلى آيات الأنفس والآفاق الهائلة

على حتمية وجود الله تعالى وربوبيته للكون والكائنات واستحقاقه للعبادة .

وحكى القرآن المجيد مقالة فرعون :

« قال : فمن ربكما يا موسى ؟

قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

قال : فما بال القرون الأولى ؟

قال : علمها عند ربى فى كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل السكم الأرض مهذا وملك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، » (١) .

ويرعلق الإمام الرازى على هذه المحاوره قائلا :

إن فرعون كان شديد القوة ، عظيم الغلبة ، كثير العسكر ، ثم إن موسى عليه السلام لما دعاه إلى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والإيذاء بل خرج معه فى المناظرة لما أنه لو شرع أولا فى الإيذاء لنسب إلى الجمل والسفاهة فاستنكف من ذلك ، وشرع أولا فى المناظرة وذلك يدل على أن السفاهة من غير الحجة شيء ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعى الإسلام والعلم ؟

ثم إن فرعون لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك قبل موسى ذلك السؤال واشتغل بإقامة الدلالة على وجود الصانع ، وذلك يدل على فساد التقليد ، ويدل أيضا على فساد قول التعليمية الذين يقولون نستفيد معرفة الإله من قول الرسول ، لأن موسى عليه السلام اعترف بهمنا بأن معرفة الله تعالى يجب أن تكون مقدمة على معرفة الرسول ،

وتدل على فساد قول الحشوية الذين يقولون نستفيد معرفة الله والدين من الكتاب والسنة،^(١).

وحكى القرآن مقالة الدهريين الذين ينكرون وجود الله تعالى ، ويذهبون إلى المقالة المنسكرة : ما هي إلا بطون تدفع وأرض تبلع ، هكذا كان في الأول وهكذا يكون في الآخر ، بلا إله خالق وبلا موعده منتظر للحساب والجزاء .

قال الله تعالى : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتقوا بآياتنا إن كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ،^(٢).

وقد جمع القرآن في آية واحدة مناهج الاستدلال كلها حول هذه القضية الكبرى فقال :

« أم خلقوا من غير شيء ؟

أم هم الخالقون ؟

أم خلقوا السموات والأرض ؟

بل لا يوقنون » ،^(٣).

فليس يعقل أن يوجد الإنسان بلا خالق ، فظاهر الإبداع فيه متناهية الدقة ، تنطق بقوة الحجة بأن الإنسان مخلوق .

(١) التفسير الكبير ج ٢٢ ص ٦٢

(٢) سورة الجاثية — الآية ٢٤ : ٢٦

(٣) سورة الطور — الآية ٣٥ : ٣٦

وحيث إن الإنسان مخلوق فليس يعقل أن يوجد مصادفة أو أن يخلق نفسه ، فكل الاحتمالين مرفوض عقلا ، فالمصادفة لا تخلق نظاما وإبداعا ، ولا يتقدم الإنسان نفسه وإلا كان موجودا معدوما في لحظة واحدة وهذا تناقض مستحيل .

فإذا انتقلنا إلى ما حول الإنسان من سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، وكائنات لا تحصى ولا تعد ، سبقت وجود الإنسان ، وتبقى بعد زواله ، ولا يستطيع تعديل نوااميسها بل لا يستطيع الإحاطة بها .. فالنتيجة الحتمية هي أن الله موجود ، وخالق الكون والكائنات ، ومدير الأمور كله ، وله السلطان المطلق .

إن المجال العقلي في النظر إلى الكون سمائه وأرضه ، حيوانه وطيوره ، بره وبحره — كفيل بقيادة البشر حتى يتبين لهم أنه الحق ، ، وجدير بإظهار حقيقة الحقائق :

« ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ، » (١) .

وحينما سئل رائد الفضاء السوفيتي (جاجارين) عما شاهده في رحلته الأولى حول الأرض قال :

لقد شاهدت الأجرام السماوية والكواكب تدور في نظام دقيق كأن قوة عليا تمسك بها وتهيمن عليها .

ذلك هو الشعور القطري الذي عبر عنه القرآن المجيد بقوله :

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفورا ، » (٢) .

وما كاد (جاجارين) يصرح بذلك حتى استدعاه (خروشوف)
رئيس الوزراء السوفيتي ، وذكره بشيوعيته فكيف ينطق بما يفهم منه
الإيمان بالله ؟ :

فلم يلبث أن أعلن أنه بحث عن الله في كل مكان في السماء فلم يجده !!
وقد زار القاهرة خلال شهر يناير سنة ١٩٧٥ رائد الفضاء الأمريكي
(جيمس أروين) قائد رحلة أبوللو ١٥ التي استغرقت ثلاثة عشر يوما
من ٢٦ يوليو إلى ٧ أغسطس سنة ١٩٧١ ، وقضى منها حوالي عشرين
ساعة على سطح القمر في سيارة خاصة .

وفي حوار صحفي معه نشر في صحيفة أخبار اليوم (١٩٧٥/١/١١) .
قال :

لقد أدى نزولي على سطح القمر إلى زيادة إيماني بالله ، وزادت
المقيدة الدينية عمقا في نفسي .. .

فقبل له :

ولكن جاجارين قال إنه بحث عن الله في السماء فلم يجده !!

فقال أروين :

أنا لا أعرف إذا كان جاجارين قد صرح بذلك أم لا ، ولكني
أحب أن أوضح أن الإنسان لا يمكن أن يرى الله بعينه كما يرى سائر
الكائنات ، وأنا أيضا لم أر الله في رحلتي من الأرض إلى القمر .. ولكني
شعرت به وازدادت إيماني بوجوده ، وبقدرته ، وبقوته ..

فهذه الكواكب والنجوم التي تسبح في الفضاء اللانهائي بنظام رائع ،
وبديع ، ومعكم ، لا يمكن أن تكون قد وجدت تلقائيا أو بمحض الصدفة

ولكن لابد من وجود قوة خارقة لا يبلغ مداها عقل الإنسان هي
التي تتولى تنظيم حركة الكون وحركة الكواكب والنجوم في الفضاء .
وهذه هي القدرة الإلهية !!

حديث الفطرة :

لقد أمرنا الله تعالى أن نحافظ على فطرة التوحيد ، والاعتصام
بشرعية الحق ، ونخلع ربة الجاهلية التي تعمل على تغيير معالم الفطرة ، فقال -
جل شأنه :

« فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل
لخلق الله ، ذلك الدين القيم .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، منيبين إليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ،
ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حوب -
بما لديهم فرحون ، » (١) .

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى :

« إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم
وحرمت عليهم ما أحللت لهم » .

ونحن نؤمن بالفطرة على المستوى الجمعي وعلى المستوى الفردي .
فالفطرة على المستوى الجمعي تعني أن البشرية جمعاء بدأت عقيدتها
بالتوحيد الخالص لله تعالى انطلاقا من أولية آدم عليه السلام وهبوطه
إلى الأرض طاهرا مجتبي .

والفطرة على المستوى الفردي تعني قبول الإنسان للحق وإيمانه بالله .

ويعينه بأن للكون خالقا مبدا حكيما لا شريك له، طالما كان الفرد سليما من آفات التقليد والهوى والعادة الجاهلية ..

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ - كما في الصحيح - :

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تلج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » .
وفي رواية : كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تلج البهيمة ، هل ترى فيها من جدعاء ، (١) .

وإذا استطلعنا آراء العلماء في شرح هذا الحديث الشريف نجد الإمام ابن حجر العسقلاني يقول :

« أشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام ، قال ابن عبد البر : وهو المعروف عند عامة السلف ، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، الإسلام .. »

ثم نقل ابن حجر أن المراد بالفطرة تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلية والتهير لقبول الدين ، فلو ترك المرء عليها لاستمر على لؤمها ولم يفارقها إلى غيرها ، لأن حسن الدين ثابت في النفوس ، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد ..

وإلى هذا مال القرطبي في المفهم فقال :

المعنى أن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعيانهم

(١) تلج - يضم أوله وسكون النون وفتح التاء بعدها جيم -
على ما لم يسم فاعلة (مبنى للجحول) والجدعاء المقطوعة الأذن ، والمراد أن البهيمة تولد سليمة ثم يجدها الناس بعد ذلك .

وأسماءهم قابلة للزيمات والمسموعات، فدامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق، ودين الإسلام هو الدين الحق..

وقد دل على هذا المعنى بقية الحديث حيث قال عليه الصلاة والسلام : « كما قُلْتُج البهيمة ، يعنى أن البهيمة تلد الولد كامل الخلقة ، فلو ترك كذلك كان برينا من العيب لكنهم تصرفوا فيه بقطع أذنه ، مثلا نخرج عن الأصل ، وهو تشبيهه واقع ووجهه واضح .

ثم نقل ابن حجر توضيحاً لمعنى الحديث عن ابن القيم فقال :

ليس المراد بقوله « يولد على الفطرة » ، أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين ، لأن الله تعالى يقول « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » (١) .

ولكن المراد أن فطرته مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبهه ، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار والمحبة .

وليس المراد بمجرد قبول الفطرة لذلك لأنه لا يتغير بتحويل الأبوين مثلاً بحيث يخرجان الفطرة عن القبول .

ولنما المراد أن كل مولود يولد على إقراره بالربوبية ، فلو خلى وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره .

كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من ارتضاع اللبن حتى يصرفه عنه الصارف ، ومن ثم شبهت الفطرة باللبن بل كانت إياه في تأويل الرؤيا .. (٢) .

(١) سورة النحل — الآية ٧٨

(٢) فتح الباري — شرح صحيح البخاري — ٣ ص ٢٤٩

- ١١٢ -

ومن هذا يتبين أن مايجرى على الفرد هو مايجرى على النوع، ففطرة الفرد تنادى بالتوحيد .

والإنسان في حال الضيق والاضطرار واليأس يجد نفسه مدفوعاً دفعاً قوياً إلى اللجوء إلى الله وحده واستمداد العون منه، ومناجاته رجاء كشف الضر وإزالة الغمة والإنقاذ من المحنة كما قال تعالى : و قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدهونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كorb ثم أنتم تشركون، (١) .

وإن الإنسانية في بدء أمرها لم تلغأ في غية الوحي الإلهي ولا بعيداً عن منهج الوسل .

دعوة الأنبياء

بعث الله الأنبياء ليقوموا التوحيد، ويلشروا لواء الوجدانية،
ويحققوا العلاقة الصحيحة بين الخلق والخالق..

قال تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا
الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا
في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، » (١) .

وكانت كلمة التوحيد هي كلمة الوحي الأولى التي جاهد عليها جميع
الأنبياء .. قال جل شأنه :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا
فاعبدونه ، » (٢) .

ولهذا التقى رسل الله وأنبيأؤه على نداء واحد ، توجهوا به إلى
أقوامهم وهو : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، »

قاله نوح عليه السلام :

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، » (٣) .

وقاله هود عليه السلام :

« وإلى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من غيره
أفلا تتقون ، » (٤) .

(١) سورة النحل — الآية ٣٦

(٢) سورة الأنبياء — الآية ٢٥

(٣، ٤) سورة الأعراف ٥٩ ، ٦٥

- ١١٤ -

وقاله صالح عليه السلام :

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم .. » (١) .

وقاله إبراهيم عليه السلام :

« وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، » (٢) .

وقاله شعيب عليه السلام :

« وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم ، » (٣) .

وقاله المسيح عليه السلام في الدنيا :

« وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ، » (٤) .

وسيقوله المسيح مرة أخرى أمام الأشهاد في القيامة :

« ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم ، » (٥) .

وهكذا كل نبي ..

(١) سورة الأعراف ٧٣

(٢) سورة العنكبوت — الآية ١٦

(٣) سورة الأعراف — الآية ٨٥

(٤) سورة المائدة — الآية ٧٢

(٥) سورة المائدة — ١١٧

وقدّم الأنبياء لأقوامهم مناهج الأدلة وقواطع البراهين، ومجادلوهم
بالتى هى أحسن، وألزمهم الحجة فى كل زمان ومكان ..

لقد ساق نوح عليه السلام لقومه آيات الأنفس والآفاق، ولفت
عقولهم إلى إتقان الصنع وإبداع الخلق فى السموات والأرض، وذكرهم
بنعم الله التى تتوالى عليهم بالليل والنهار، لا يملكون فيها من قطمير،
وليس لهم فيها من شرك، ولا قدرة لبشر عليها ..

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام:

« ما لكم لا ترجون لله وقارا، وقد خلقكم أطوارا ١٤١ »

ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا، وجعل القمر فىهن نورا،
وجعل الشمس سراجا ١٤٢

والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ..
والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا (١) .

• • •

وشارك إبراهيم عليه السلام فى مجادلات شتى ومعاورات عذّة، مع
الملك الطاغية، ومنع أبيه، ومع عبدة الأصنام، ومع عبدة الكواكب ..

وحدد لكل فريق منهاجا للاستدلال، ولكل قوم طريقة فى البحث،
كى يصل بهم إلى فطرة الحق ونقاء التوحيد ..

ونقرأ على سبيل المثال:

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من

- ١١٦ -

الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال :
لأحب الآفلين .

فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى
لأكون من القوم الضالين .

فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم
إنى برىء مما تشركون . .

إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض خنيقا ، وما أنا
من المشركين ، (١) .

لقد اصطفى الله إبراهيم وعلمه ، وآتاه الحجة ، وزاده حكمة وعمق
بيان ويقين استدلال . .

واتجه إبراهيم إلى الصابئة الذين يعبدون الكواكب من دون الله ،
وتنزل إليهم وشرح لهم أحوالها التى تتنافى مع الألوهية وتنافى بها عن
الربوبية . .

وانتهى بهم إلى ضرورة اليقين بحقيقة الحقائق والتسليم لله فاطر الكون
ومبدع الكائنات ، ومأنح الأسباب والمسببات ، والمهيمن على كل شيء . . .

توحيد القرآن

إن الجانب الإلهي في الإسلام تحدده كلمات قصار ، هي قة الإجماع وقوة التصوير ، في قوله تعالى :

« قل هو الله أحد .

الله الصمد .

لم يلد ولم يولد .

ولم يكن له كفواً أحد . .

وقد جاء في أسباب النزول أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ :
أنسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى هذه السورة .

وثبت في صحيح الحديث أنها تعدل تلك القرآن ، ففي صحيح البخاري أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ « قل هو الله أحد » يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالمها (١) فقال النبي ﷺ : واللعن نفسي بيده إنها لتعدل تلك القرآن .

وفي رواية أخرى : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : أبيعو أحدكم أن يقرأ تلك القرآن في ليلة ؟ فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يطيق ذلك يارسول الله ؟ فقال : « قل هو الله أحد » تلك القرآن .

وفي توجيهاً أن هذه السورة تعدل تلك القرآن أقوال للعلماء منها :

١ - هي تلك القرآن باعتبار المعاني القرآنية ، فالقرآن أحكام

(١) يعدها قليلة .

وأخبار وتوحيد ، وقد اشتملت هذه السورة على القسم الثالث وهو التوحيد .

٢ — إن معرفة الله تعالى قائمة على معرفة الذات ومعرفة الصفات ومعرفة الأفعال ، وهذه السورة بينت معرفة الذات المقدسة بجلالها وكبرياها ، فالأحدية تشعر بوجود خاص لا يشاركه فيه غيره ، والصدقية تشعر بجميع خصال السكالك لأنه الذى انتهى إليه السؤدد فكان الملجأ والمنجى منه وإليه .

٣ — إن ثواب قراءة سورة الإخلاص يعدل ثواب من قرأ تلك القرآن .

٤ — ادعى بعضهم أن قوله : « تعدل تلك القرآن » يختص بصاحب الواقعة لأنها لما ردها فى ليلته كان كمن قرأ تلك القرآن بغير تردد ، وأعمل الرجل الذى جرى له ذلك لم يكن يحفظ غيرها فلذلك استقل عمله ، فقال له الشارح ذلك ترغيباً له فى عمل الخير وإن قل .^(١)

ولهذه السورة خاصة أخرى جلية ، فمن قرأها وداوم عليها وتعلق بها وعقل معناها وعمل بمقتضاها قاده ذلك إلى الجنة وحظى بالرضوان الأكبر ، وقد أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : سلوه . لاى شىء يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبى ﷺ : أخبروه أن الله تعالى يحبه .

(١) راجع هذه الآراء فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١

وفى موقف آخر كان رجل من الأنصار يؤمهم فى مسجد قباء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم فى الصلاة بما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد ، حتى يفرغ منها ثم كان يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك فى كل ركعة ، فكلبه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجوزك حتى تقرأ بالآخرى ، فإما أن تقرأ بها وإما أن تقرأ بالآخرى .

فقال : ما أنا بتاركها ، إن أحببت أن أوكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتكم ، وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره ، فلما أتاهم النبى ﷺ أخبروه الخبر فقال : يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ؟ وما حملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة ؟

قال : إني أحبها ، قال عليه الصلاة والسلام : « حبك إياها أدخلك الجنة » .

وألفاظ السورة الكريمة تحدد الجانب الإلهى تحديداً واضحاً ، فاقه أحد ، وانفرد الواحد فى الإثبات لا يطلق إلا على الله هو وجل لأنه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله .

وقد ذكر الإمام الرازى بحثاً قيمياً حوله التعبير الشريف « الله أحد » فقال : إن صفات الله تعالى إما أن تكون إضافية وإما أن تكون سلبية ، أما الإضافية : فكقولنا عالم ، قادر ، مريد ، خلاق ، وأما السلبية فكقولنا : ليس بجسم ولا بجوهر ولا بعرض .

والمخلوقات تدل أولاً على النوع الأول من الصفات ، وثانياً على النوع الثانى منها ، وقولنا « الله » يدل على مجامع الصفات الإضافية ، وقولنا « أحد » يدل على مجامع الصفات السلبية ، فكان قولنا « الله أحد » تاماً فى إفادة العرفان الذى يليق بالعقول البشرية .

ولأننا قلنا إن لفظ « الله » يدل على مجامع الصفات الإضافية ، وذلك لأن الله هو الذى يستحق العبادة ، واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يكون مستبداً بالإيجاد والإبداع ، والاستبداد بالإيجاد لا يحصل إلا لمن كان موصوفاً بالقدر التامة والإرادة النافذة والعلم المتعلق بجميع المعلومات ، من الكليات والجوئيات وهذه مجامع الصفات الإضافية .

وأما مجامع الصفات السلبية فهى الأحادية وذلك لأن المواد من الأحادية كون تلك الحقيقة فى نفسها مفردة ، منزهة عن أنحاء التركيب وذلك لأن كل ماهية مركبة فهى مفتقرة إلى كل واحد من أجزائه ، وكل واحد من أجزائه غيره . فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته ، فكل مركب فهو ممكن لذاته .

فالإله الذى هو مبدأ جميع الكائنات ممتنع أن يكون ممكناً ، فهو فى نفسه فرد أحد ، وإذا ثبتت الأحادية وجب أن لا يكون متحيزاً فإن يمينه مغاير ليساره وكل ما كان كذلك فهو منقسم ، فالأحد يستحيل أن يكون متحيزاً .

وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن فى شىء من الأحياء والجهات ، ويجب أن لا يكون حالاً فى شىء ، لأنه مع محله لا يكون أحداً ، ولا يكون محلاً لشىء لأنه مع حاله لا يكون أحداً .

وإذا لم يكن حالاً ولا محلاً لم يكن متغيراً ألبتة لأن التغير لابد وأن يكون من صفة إلى صفة .

وأيضاً إذا كان أحداً وجب أن يكون واحداً ، إذ لو فرض موجودان واجبا الوجود لاشتركا فى الوجوب ولتمايزا فى التعيين ،

وما به المشاركة غير ما به الممايزة ، فكل واحد منها مركب ، ثبت أن كونه أحداً يستلزم كونه واحداً ،^(١) .

وقوله تعالى : « الله الصمد » يراد به المقصود في الحوائج ، المستغنى عن العالمين ، وهو يلتقي في المعنى مع الآية الكريمة : « يا أيها الناس أتمفقوا إلى الله ، والله هو الغنى الحميد » ،^(٢) .

، وهذا المعنى يوضحه الحديث الشريف القدسي : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا .

يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم .

يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعته فاستطعموني أطعمكم .

يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم .

يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم .

يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني وإن تبلغوا نفعي فتنفعوني . .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . .

(١) التفسير الكبير للإمام الرازى ج ٣٢ ص ١٨٠ ط دار الفكر .

(٢) سورة فاطر الآية ١٦ .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر ..

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، رواه مسلم .

وقوله تعالى : « لم يلد ولم يولد » إشارة إلى أنه تعالى أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء فهو سبحانه الأولى الأبدى ، وقد ادعى المشركون أن الملائكة بنات الله ، وادعى اليهود أن عزيزاً ابن الله ، وادعى النصارى أن المسيح ابن الله « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ، فالاية الكريمة تنفى الولدية والمولودية وتؤكد الاحدية الصمدية .

وقوله تعالى : « ولم يكن له كفواً أحد » تثبت لعقيدة مفارقة الله لسائر الكائنات وعلوه عليها ، وأن كل ما طرأ ببالك فاقه بخلاف ذلك ..

وبهذه السورة الكريمة وبهذا الوضوح الجلى فى العقيدة الإسلامية تتهاوى كافة العقائد الوثنية وأباطيل أهل الكتاب وأوهام الفلاسفة ..

الدين الخالص

إن عالم اليوم الذى تصارعت فيه القوى والمذاهب ووصل إلى درجة التشبع المادى الرخيص .. أصبح يتلهف على عقيدة تؤازر العقل الراشد ، وتهب السعادة للنفس الإنسانية وتتسامى بعواطف الإنسان وغرائزه إلى آفاق الملأ الأعلى .

وإن تكون تلك العقيدة إلا عقيدة الإسلام الذى ختم الله به الرسالات فهو الدين القيم ، وهو أمل الإنسانية المرتقب فى اليوم ، وفى الغد بعده ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

المراد بالدين الخالص :

فالعقيدة الإسلامية هى الدين الخالص الذى لا يعرف معبوداً غير الله الواحد الأحد ، له وحده العبادة ، وبه وحده الاستعانة ، وعليه وحده التوكل ، وإليه وحده المناجاة والتضرع .

قال الله تعالى : **دوما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ، (١) .

والعقيدة الإسلامية لا تعرف تشبيهاً أو تجسيمياً للألوهية بل كل ما حطأ ببالك فإله بخلاف ذلك .. قال سبحانه : **ليس كمثل شيء وهو السميع البصير** ، (٢) .

والعقيدة الإسلامية لا تعرف حلولاً أو اتحاداً ، فالكون والكائنات جميعاً مربوبة لله سبحانه ، وواقعة تحت قهره وسلطانه وهيمنته ..

(١) سورة البينة آية ٥ .

(٢) د الشورى آية ١١ .

قال جل شأنه : «وقه يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ، وظلالهم بالغدو والآصال» (١).

وقال سبحانه وتعالى :

«لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ، فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً» (٢).

والعقيدة الإسلامية لا تعرف وساطة أو كهانة ، وقد نص القرآن على قوم بدلوا عقيدة التوحيد كفرأ فقال :

«اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون» (٣).

وفي حديث رواه أحمد والترمذي وابن جرير أن عدي بن حاتم الطائي - وكان قد تنصر في الجاهلية - دخل على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية فقال عدي : إنهم لم يعبدوه .

فقال الرسول ﷺ : بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوه فذلك عبادتهم إياهم .

(١) سورة الرعد الآية ١٥ .

(٢) سورة النساء - الآية ١٧٢ : ١٧٣ .

(٣) «التوبة - الآية ٣١» .

مفهوم العبادة :

إن المسلم يقرأ كل يوم سورة الفاتحة سبع عشرة مرة على الأقل .
وفيهما قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » ، وفي تقديم الضمير
« إياك » على الفعلين ما يدل على الاختصاص .

فالعبادة هي منتهى الخضوع والتذلل ..

والاستعانة هي طلب العون ممن يقدر ويملك ..

فالله وحده مالك الملك والملسكوت ، ذو القوة والجبروت ..

فعليه وحده التوكل وإليه وحده إسناد عظام الأمور ودقاتها ، قال :

تعالى :

« وتوكل على العزيز الرحيم »^(١)

« وتوكل على الحي الذي لا يموت »^(٢)

« وتوكل على الله وكفى بالله كيلا »^(٣)

وإلى الله وحده المناجاة والتضرع ، فيكشف الضر ، ويجب المضطر .

ويرزق من يشاء بغير حساب .. قال تعالى :

« وإذا سألك عبادى عنى فأبى قريب ، أجب دعوة الداع إذا دعان ..

فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون »^(٤) .

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٧

(٢) الفرقان الآية ٥٨

(٣) الاحزاب الآية ٣

(٤) البقرة الآية ١٨٦

ولله وحده الحب كله في أسمى معانيه وأجل مقاماته وأعظم درجاته ،
قال تعالى : «والذين آمنوا أشد حبا لله» (١) .

ومن الله وحده الخشية والرهبة . . . قال تعالى : «الذين
يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ، وكفى
بالله حسيبا» (٢) .

المعاني البشرية:

إن الحب والخشية والدعاء والاستعانة عندما نتوجه بها إلى الله تعالى
فهو اليقين الكامل بأن الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، ذو الجلال
والإكرام ..

ولا حرج شرعاً في استخدام هذه الألفاظ في المجال البشري ،
فنحن نحب أهلينا وأموالنا ، ونخشى أعداءنا ، وندعو الكبراء فينا ،
ونستعين بالأقوياء ، ونطلب النجدة من يستطيع نصرتنا ..

لكن هذا الاستخدام البشري إنما هو في إطار الضعف الإنساني
والقدرة البشرية الممنوحة من الخالق المبدع الحكيم ، ومن باب التعاون
على البر والتقوى ..

ولمنا ندعى لأحد من البشر هيمنة على الكون أو سلطاناً على الكائنات،
أو علواً على الخلق ، أو تدبيراً للملكوت ..

فالله عنده شرعاً هو حب الناس كحب الله ، أو خشية الناس كخشية

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥

(٢) سورة الاحزاب الآية ٣٩

الله ، أو دعاء الناس كدعاء الله .. وهذا ما أكدته النصوص الشرعية .. قال تعالى : ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، (١) .

وقال جل شأنه : فلبا كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، (٢) .

فلكل درجة ولكل حدوده ..
وما كان لله فهو أعز وأكرم وأجل ..

نماذج شركية :

وانطلاقاً من هذه الخاصة العقيدية نهى الإسلام أشد النهي عن أمور تتنافى مع الدين الخالص ، وتشوب العقيدة الصحيحة وقد تصل بها إلى الشرك الخالص .. فنهى الإسلام عن اتخاذ القبور مساجد ، ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة وأنها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال : أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله ، .

وحرم الإسلام أكل ما ذبح لغير الله ، فقال تعالى : ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ، (٣) .

وحذر الإسلام من الاعتقاد الخاطيء في السحر والكهانة والتنجيم

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥

(٢) سورة النساء الآية ٧٧

(٣) سورة الأنعام الآية ١٢١

والتطير، ففي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

وفي الصحيح أيضا:

«من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة».

آفاق عقيدة التوحيد

١ - أفق الاسم :

• « لا إله إلا الله » هي كلمة التوحيد الخالص لله تعالى ، فلا معبود بحق سوى الله ، فهو سبحانه المستحق وحده للعبادة ، وهو وحده المستغنى عما سواه ، والجميع في حاجة إلى الله خلقاً ومدداً ومداية ..

قال الله تعالى : « يا أيها الناس أتمم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد » (١) .

• « لا إله إلا الله » هي كلمة الإخلاص ، لأن تعدد الشركاء والآلهة الموعومة يورث شتات الفكر وضياح الوعي ونفاق الكلمة والسلوك قال الله تعالى : « ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » (٢) .

• « لا إله إلا الله » هي كلمة التقوى ، فلا وقاية من عذاب الله وسخطه إلا بالتوحيد ، ولا وقاية من الانحراف والخطيئة إلا بالتوحيد .

فمن أيقن بأن الله واحد لا شريك له ، أسلم وانقاد له فالتزم الأمر واجتنب النهى وحافظ على الشريعة ..

وقد جعلها الله وساماً رفيعاً لأصحاب بيعة الرضوان فقال : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق

(١) سورة فاطر الآية ١٥٦

(٢) الزمر الآية ٢٩

بها وأهلها، وكان الله بكل شيء علياً^(١).

• لا إله إلا الله ، هي دعوة الحق ، فعندما يؤمن الإنسان بعقيدة التوحيد إيماناً راسخاً يسره أن يدعو الناس إليها ويعرفهم بها ويأخذ بأيديهم إلى رحابها ، لأن التوحيد هو أصل كل خير وأساس كل سلوك رشيد ، فالمنطلق لحياة كريمة طيبة في الدنيا والآخرة هو توحيد الله تعالى ، والشهادة له سبحانه بالجلال والكمال ، والاستقامة على شرع الله عز وجل ..

قال تعالى : وله دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ،^(٢).

• لا إله إلا الله ، هي الكلمة الطيبة التي تثمر كلمات طيبات تضيء جوانب الحياة بأسرها ، فإما من كلمة خير وبر ومعروف إلا ومنطلقها كلمة التوحيد ، وفي خيبة هذه الكلمة الطيبة تتوالى الشرور وتوارد المفاسد ويضيع الأمل وتصبح الحياة جرداء قاحلة ..

قال تعالى : ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ،^(٣).

• لا إله إلا الله ، هي العروة الوثقى ، فحق المسلم التوحيد في

(١) سورة الفتح الآية ١٨

(٢) الزعد الآية ١٤

(٣) إبراهيم الآية ٢٤ : ٢٦

العقيدة، وأثمر في قلبه الإخلاص النقي، ودفعه إلى التقوى، وعاش
بالكلمة الطيبة من أجل دعوة الحق - فقد استمسك بالعروة الوثقى
ويمكن من ناصية السعادة والفوز المبين ..

قال الله تعالى ومن يسلم وجهه إلى الله فهو محسن فقد استمسك بالعروة
الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور، (١).

• لا إله إلا الله، هي مفتاح الجنة ..

قال تعالى : «إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار
وما للظالمين من أنصار» (٢).

فليس هناك أظلم ممن أغلق عينيه دون النور، وطعن بصيرته دون
الوحي الإلهي، وتمرد على الشرع الشريف ..

٢ - أفق العلم :

إن عقيدة التوحيد تدشأ عن العلم بآيات الأنفس والآفاق، والتعرف
على ملكوت السموات والأرض، والتأمل في صنع الله الذي أتقن
كل شيء ..

ولهذا قال الله تعالى : «فاعلم أنه لا إله إلا الله» (٣).

فالإيمان مصاحب للعقل، ولا دين لمن لا عقل له، ولا عقل لمن
لا دين له ..

وقد حرص القرآن المجيد على تأكيد أهمية العلم ودوره في بناء العقيدة

(١) سورة لقمان الآية ٢٢

(٢) سورة المائدة الآية ٧٢

(٣) سورة محمد الآية ١٩

الصحيحة ، وكان الشعار المرفوع دائماً في مواقف الجدل مع خصوم
الدعوة هو قوله تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (١) .

« قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » (٢) .

وكان القرآن كتاب الكون المقروء وكان الكون قرآن الله المنظور ،
ولنعلم : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟
سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ١٤

قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟
سيقولون لله قل أفلا تتقون ١٤

قل من يده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم
تعلمون ؟

سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون ١٤
بل أتيناكم بالحق وإنهم لكانزون

ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لنذهب كل إله بما خلق
ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون » (٣) .

إن عقيدة التوحيد تدفع المسلم دفعا قويا إلى طلب العلم والبحث في
نواميس الكائنات ، والتعرف على خصائص الأشياء والانتفاع بالملكات
التي منحها الله لنا ..

وقد أعلی الله منزلة العلماء فقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة

(١) سورة النمل الآية ٦٤

(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٨

(٣) سورة المؤمنون الآية ٨٤ : ٩١

— ١٣٣ —

فقال: شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم (١).

وخص العلماء بالخشية فقال: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» (٢) فعلى قدر معرفة الإنسان بربه تكون خشية منه سبحانه ..

ومن هنا كان طلب العلم فريضة وكان طالب العلم معانا من الله ، قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع .. ».

٣ — أفق الوجدان :

خلق الإنسان في كبد ، وقدم إلى الحياة وسط متاعب ومشاكل وهموم تلازمه ، فيضيق صدر الإنسان ويعتريه القلق ..

والحل هو عقيدة التوحيد والإيمان بالله عز وجل ، فهو الأمل في هذه الحياة ، وهو الضياء لمسيرة الإنسان ..

إن الحياة قائمة على المتقابلات من صحة أو مرض ، ومن غنى أو فقر ، ومن أولاد أو عقم ، ومن شباب أو كهولة .. الخ وليس هناك من ناموس يحكم هذه المتقابلات ويهب الناس السكينة حياها إلا الإيمان بالله ، ذلك أن الحياة في منطق الإيمان مبنية على قانون عام هو الابتلاء والامتحان .. قال الله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (٣) .

وشأن المؤمن أن يكون شاكرا عند النعمة والعطاء ، صابرا في مواعق

(١) سورة آل عمران الآية ١٨

(٢) سورة فاطر الآية ٢٨

(٣) سورة الأنبياء الآية ٣٥

البعضاء ، قال تعالى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » (١) .

وبذلك يعيش المؤمن في هدوء وسكينة ، مشرح الصدر قري العين :

وفي غيبة عقيدة التوحيد يتكبر الإنسان عند النعمة ويطنى بها ويفسد في الأرض ، وعند المهينة يجزع ويقنط ويأص وتنهز حياته ، ولهذا قال رسول الله ﷺ « عجا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ، وإن أصابته ضراء فصبّر كان خيراً ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » .

وفي مواقف كثيرة عندما تنقطع الأسباب ويظلم الطريق يابجأ الإنسان إلى ربه وجاء كشف الغمة فإذا تداركته رحمة الله ونجا - عاود الإنسان انحرافه ونسى نعم الله عليه ..

وفي تصوير هذه الحال العجيبة يقول الله تعالى : « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه » (٢) .

أى أنه في حال شدة البحر واشراف المرء على الغرق يلسى جميع الشركاء ولا يعتقد إلا في قدرة الله جل جلاله ، فيحقق الله رجاءه وينقذه بما فيه من أهوال ، ولكن الإنسان تلهيه النعمة :

« فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراء » .

وهل نسى أن إله البحر هو إله البر ، وأن صاحب الهيمنة المطلقة هو الله وحده ؟ [أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لاتجدوا لكم وكيلاً] .

(١) سورة التغاين الآية ١١

(٢) سورة الإسراء الآية ٦٧

ثم أليس من الممكن أن تعود الشدة مرة أخرى ويقف الإنسان نفس الموقف السابق يحيط به الموج من كل مكان ؟ [أم أنتم أن بعيدكم فيه قارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتهم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا] .

إن العاقل يتعرف إلى الله في الرخاء ليعرفه في الشدة ويظل وفيا لمنهج الله في السراء والضراء ..

٤ - أفق الاجتماع :

إن عقيدة التوحيد تعمق في قلب الإنسان لتثير الحياة بأمرها ، ولتقدم للناس كرائم الأخلاق ، وعحامد السير ، وفضائل الأعمال ، وطيبات السلوك ..

ويتحقق ذلك من جوانب عدة ..

يتحقق من خلال المراقبة الذاتية التي تجعل المؤمن يسعى لأن يراه الله حيث أمره ويفقده حيث نهاه ، قال الله تعالى : « ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم » (١) .

ويتحقق من خلال التراحم والتواصل بين الأجيال وفئات المجتمع .. كما قال تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » (٢) .

(١) سورة المجادلة الآية ٧

(٢) سورة الحشر الآية ١٠

ويتحقق من خلال الإيثار والتضحية ، فيحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه بل قد يقدمه على نفسه .. قال الله تعالى : « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (١) .

ويتحقق من خلال العمل المخلص للدوب، بحيث يؤدي المؤمن عمله بإتقان .. قال الله تعالى :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (٢) .

ويتحقق من خلال الالتزام بمنهج الله الذي يهدي للتي هي أقوم ، فإن الإنسان صنعة الله ، والله أعلم بما يصلحه « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (٣) ..

وما ساد ظلم ولا ضاع حق ولا انتهكت حرمة إلا في غيبة منهج الله، فحيث يوجد الإيمان توجد الأمانة والأمن .. قال تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » (٤) .

(١) سورة الحشر الآية ٩

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٥

(٣) سورة الملك الآية ١٤

(٤) سورة الأنعام الآية ٨٢

• — أفق الذكر :

إن عقيدة التوحيد بعمقها التاريخي وآفاقها العلمية والنفسية والاجتماعية
تتغلغل في الحياة بأجمعها ..

وهذه الأهمية القصوى تحتم أن يظل المؤمن مرددا بقلبه ولسانه « لا
إله إلا الله » حتى لا يكون من الغافلين ..

إن الحياة حلوة بذكر الله ، سعيدة بمنهج الله ، ممتدة باسم الله ، وهذا
المعنى يجعل المؤمن في قمة الوعي والعقل .. قال الله تعالى : « إن في خلق
السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار ، الذين
يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق
السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ،
ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا
منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر
عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخونا
يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ، (١) » .

إن هذا الذكر هو دعوة تأمل في خلق الله ، ودعاء إلى الحب الكريم ،
وجهاد من أجل الحق ، ورجاء في محاسن الدنيا ومحاسن الآخرة ، فقد وعد
الله رسله والمؤمنين النصر والتكسين في الدنيا والفردوس الأعلى
في الآخرة .

والمراد بالذكر قياماً وقعوداً وعلى الجنب هو الاستمرار والعموم
على كل الأحوال ، وفي كافة المواقف ، وليس المراد افتعال قيام وقعود ..
وجاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن شرائع

الإسلام كثرت على ، فباب من الخير جامع ، فقال : لا يزال لسانك رطبا بذكر الله .

إن الذكر مفتاح الخير للسلوك الإنساني ، فليس يعقل أن إنسانا يردد بقلبه ولسانه : « لا إله إلا الله » ويعقل معنى كلمة التوحيد هذه ثم هو يغتاب أو يحقد أو يقصر في عمل ، أو يفرط في واجب ، أو يقف موقف الفاحشة والمنكر . .

وفي ثواب ذكر كلمة التوحيد جاء الحديث الصحيح : من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، في يوم مائة مرة كانت له عدله عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك ،

إن إنسانا يردد في اليوم كلمة التوحيد مائة مرة هو إنسان تائب يستمطر رحمة الله ، ويسمى لأداء الفرائض ، ويكف عن المحارم ، ويتخلق بأخلاق الله . .

النتائج الخامسة

قراءة في كتب العقيدة

- التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل
للإمام ابن خزيمة
- المواقف في علم الكلام
لعبد الدين الإيجي
- شرح العقيدة الطحاوية
للشيخ ابن أبي العز الدمشقي
- رسالة التوحيد
للإمام محمد عبده

التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل .

للإمام محمد بن إسحق بن خزيمة

المتوفى سنة ٣١١ هـ

- المؤلف وسبب التأليف
- الصفات الخبرية
- كلام الله تعالى
- الرؤية
- الشفاعة
- حكم مرتكب الكبيرة
- ملاحظات

التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل^(١)

المؤلف :

الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي
النيسابوري . ولد في شهر صفر سنة ٢٢٢ هـ ، وتوفي سنة ٣١١ هـ .
وكان شافعي المذهب ، وله مؤلفات كثيرة ، أهمها كتابه في الحديث
المسمى .. صحيح ابن خزيمة .

سبب التأليف :

يقول المؤلف في مقدمته :

تعالى ربنا عن صفات المحدثين ، وتقصد عن شبه المخلوقين ، وتنزه
عن مقالة المعطلين ، وعلا ربنا ، فكان فوق سبع سمواته عاليا ، ثم على
عرشه استوى ، يعلم السر وأخفى ، ويسمع الكلام والنهوى .

ثم يقول : أما بعد : فقد أتى علينا برهة من الدهر ، وأنا كاره
للاشتغال بتصنيف ما يشوبه شيء من جنس الكلام^(٢) من الكتب وكان
أكثر شغلنا بتصنيف كتب الفقه التي هي خلو من الكلام في الأقدار
الماضية التي قد كفر بها كثير من متبعي الإسلام ، وفي صفات الله
عز وجل التي قد نفاهوا ولم يؤمن بها المدطلون ، وغير ذلك من الكتب التي
ليست من كتب الفقه ..

(١) الكتاب راجعه وعلق عليه الدكتور محمد خليل هراس ، وطبعته

مكتبة السكليات الأزهرية سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م

(٢) المراد علم الكلام المذموم على عصر المؤلف .

وكنيت أحسب أن ما يجرى منى بين المناظرين من أهل الأهواء في
جنس الكلام في مجالسنا، ويظهر لأصحابه الذين يحضرون المجالس والمناظرة
من إظهار حقنا على باطل مخالفينا في المناظرة — كاف عن تصنيف
الكتب على صحة مذهبنا، وبطلان مذاهب القوم، وغنية من الإكتاب
في ذلك..

فلما حدث في أمرنا ما حدث مما كان الله قد قضاه، وقدر كونه بما لا
يحصى لأحد، ولأموئيل عما قضى الله كونه في الألواح المحفوظ قد سطره
من حكم قضاه، فنحن من الظهور ونشر العلم وتعليم مقتبس العلم بعض
ما كان الله قد أودعنا من هذه الصناعة.

كنت أسمع من بعض أحداث طلاب العلم والحديث، من لعله كان
يحضر مجالس أهل الزيغ والضلالة من الجهمية المعطلة والقدرية المعتزلة
— ما تخوفت أن يميل بعضهم عن الحق والصواب، من القول بالبهت
والضلال في هذين المجلسين من العلم، بإثبات القول بالقضاء السابق والمقادير
النافذة قبل حدوث كسب العباد، والإيمان بجميع صفات الرحمن الخالق
جل وعلا، بما وصف الله به نفسه في محكم تنزيله الذي لا يأتيه الباطل من
بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وبما صح وثبت عن نبينا
ﷺ بالأسانيد الثابتة الصحيحة بنقل أهل العدالة موصولا إليه ﷺ..
فيعلم الناظر في كتابنا هذا من وفقه الله تعالى لإدراك الحق والصواب،
ومن عليه بالتوفيق لما يحب ويرضى — صحة مذهب أهل الآثار في هذين
المجلسين^(١) من العلم، وبطلان مذاهب أهل الأهواء والبدع الذين هم في
ريبهم وضلالهم يعمهون... .

(١) المراد علم القضاء والقدر وعلم التوحيد والصفات.

فالمؤلف يخرج من صمته وسجل مناظراته وآراءه في كتب كي يرجع إليها طلاب العلم ولا تذهب سدى مع الأيام ..

وهو يتم بحجابين من العلم هما القضاء والقدر ، والتوحيد والصفات .

وهو يتم بخالفية بالكفر بسبب آرائهم في هذين العليين ..

ويحدد فرقا بعينها بعدها من أهل الزيغ والضلالة ، هي فرقة الجهمية وفرقة المعتزلة ..

وهو يصنف نفسه في مذهب أهل الآثار في مقابلة مذهب أهل الأهواء ...

الموضوعات

الصفات الخيرية :

بدأ المؤلف كتابه بإثبات النفس لله تعالى معتمداً على مثل قوله تعالى : «واصطنعتك لنفسى» (١) ، وقوله : «كتب ربكم على نفسه الرحمة» (٢) .

وقول رسول الله ﷺ :

«يقول الله أنا مع عبدى حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير منهم» .

ثم يثبت الوجه لله تعالى بمثل قوله جل شأنه : «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» (٣) .

(١) سورة طه ، الآية ٤١

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٥٤

(٣) سورة الرحمن ، الآية ٢٧

وقوله ﷺ: «مثل المجاهد في سبيل الله ابتغاء وجه الله مثل القائم المصلح حتى يرجع المجاهد».

وناقش المؤلف الخبر الوارد «لا يقولن أحدكم لاحد قبح الله وجهك ووجها أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورته» والنص الآخر «إذا ضرب أحدكم فليجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته».

وساق مجموعة روايات وأكد أن المراد أن وجه المضروب كوجه آدم، ووقف عند الرواية القائلة: «فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن» ورفضها لعلل ثلاث هي:

١ — إن الثوري قد خالف الأعمش في إسناده، فأورسله الثوري ولم يقل عن ابن عمر.

٢ — إن الأعمش مدلس لم يذكر أنه سمعه من حبيب بن أبي ثابت.

٣ — إن حبيب بن أبي ثابت أيضاً مدلس لم يعلم أنه سمعه من عطاء..

وقال:

إن صح الخبر فعناه عندنا أن إضافة الصورة إلى الرحمن من إضافة الخلق إليه، لأن الخلق يضاف إلى الرحمن، إذ الخلق خلقه، وكذلك الصورة تضاف إلى الرحمن لأن الله صورها، ألم تسمع قوله عز وجل «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه...» (١).

ثم ذكر المؤلف إثبات العين لله تعالى بمثل قوله جلا شأنه «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا» (٢) وقوله ﷺ «إن الله ليس بأعور».

(١) سورة لقمان — الآية ١١

(٢) سورة هود الآية ٣٧

وأثبت السماع والرؤية بمثل قوله تعالى « إنني معكما أسمع وأرى ، » (١)
وقوله ﷺ « أيها الناس إنكم لاتدعون أصم ولا غائباً ، » .

وقال : نحن نقول : لربنا الخالق عيان يبصر بهما ما تحت الثرى وتحت
الأرض السابعة السفلى ، وما في السموات العلا وما بينهما من صغير
وكبير ، ..

وتتوالى الأبواب على النحو التالي :

- إثبات اليد للخالق الباري ، جل وعلا ..
- إثبات الأصابع لله عز وجل ..
- إثبات الرجل لله عز وجل ..
- استواء خالقنا العلي الأعلى ..
- بيان أن الله عز وجل في السماء ..

وفي كل ذلك يؤكد المؤلف نفي التشبيه ويرفض المماثلة كما يرفض
التعطيل .

ويقول : تعالى ربنا عن أن يكون وجه ربنا كوجه بعض خلقه ، وعن
أن لا يكون له وجه ، إذ الله قد أعلننا في محكم تنزيله أن له وجهاً زواه
بالجلال والإكرام ، ونفى الهلاك عنه .

* * *

كلام الله تعالى :

فصل المؤلف موضوع الكلام الإلهي فبين أن الله تعالى كلم موسى من وراء حجاب وشرح صفة كلام الله بالوحي وشدة خوف السموات منه وساق هذا الحديث :

« إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صاهلة كجر السلسلة على الصفا ، قال : فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، فإذا أتاها جبريل فزع عن قلوبهم ، فيقولون : يا جبريل ماذا قال ربك ؟

قال : يقول الحق ، قال فينادون : الحق .. الحق ..

ثم ذكر أن الله تعالى يكلم عباده يوم القيامة من غير ترجمان ، وساق آيات القرآن وآحاديث المصطفى التي يستشهد بها على أن القرآن كلام الله الخالق ، وقوله غير المخلوق ..

• • •

الرؤية :

وتحدث المؤلف عن رؤية جميع المؤمنين لله تعالى يوم القيامة سواء منهم البر والفاجر ، وبين أن جميع أمة النبي ﷺ والمنافقين وبعض أهل الكتاب يرون الله عز وجل يوم القيامة ، يراه بعضهم رؤية امتحان لارؤية سرور وفرح وتلذذ ..

وهذه الرؤية قبل أن يوضع الجسر بين ظهري جهنم ، ويخص الله عز وجل أهل ولايته من المؤمنين بالنظر إلى وجهه نظر فرح وسرور وتلذذ ..

ثم ذكر الاخبار المأثورة في إثبات رؤية النبي ﷺ لخالفه العزيز
العليم ، ليلة الإسراء والمعراج ، وساق كلا من رأى ابن عباس . ورأى
السيدة عائشة ، ورجح رأى ابن عباس القائل بثبوت الرؤية ، ونقد موقف
عائشة في تعبيرها ، من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ،
وزعم أنها قالت ذلك في وقت غضب ، وأن نفي عائشة لا يوجب علماً ،
وأن إثبات ابن عباس هو الذي يوجب العلم ، فإن عائشة لم تحك عن
النبي ﷺ أنه أخبرها أنه لم ير ربه ، وإنما تلت قوله تعالى « لا تدركه
الابصار » (١) وقوله جل شأنه « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً
أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا .. » (٢) .

وقال المؤلف :

ومن تدبر هاتين الآيتين ووفق لإدراك الصواب علم أنه ليس
في واحدة من الآيتين ما يستحق من قال إن محمداً رأى ربه — الوى بالفرية
على الله ، كيف بأن يقول قد أعظم على الله الفرية ١١ .

وقد علق في الهامش الدكتور هراس بحقق الكتاب قائلاً :

ولكن لا بد للثبوت أن يورد دليل الإثبات ، ومثبت الرؤية لم يقدموا
أدلة على ذلك .

والنفي هو الأصل حتى يقوم دليل الإثبات . .

وقد عرفت السيدة عائشة رضى الله عنها مذهبها في النفي ببعض
الآيات التي ظنت أنها تشهد لها . .

(١) سورة الانعام الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الشورى الآية ٥١ .

وإن عذر عائشة رضى الله عنها أنها كانت تستعظم ذلك وتستنكره ،
ولهذا قالت لمسروق : لقد وقف شعري بما قلت . .
وليس من حق المؤلف أن يعلم أمه الأدب ، فهي أدرى بما تقول منه .

الشفاعة :

ذكر المؤلف شفاعة النبي ﷺ التي خص بها دون الأنبياء ، وأن
النبي أول شافع وأول مشفع (١) ، وشفاعة النبي ﷺ لأهل الكباثر من
أمته ، وأن الله يرضى نبيه في الشفاعة يوم القيامة حتى يقر بأنه قد رضى
بما أعطى في أمته من الشفاعة .

واختار المؤلف أن الصديقين يتلون النبي ﷺ في الشفاعة ، ثم سائر
الأنبياء ثم الشهداء .

* * *

حكم مرتكب الكبيرة :

ساق المؤلف الأخبار التي رويت في حرمان الجنة على من أوتكب
بعض المعاصي التي لا تزيل الإيمان بأسره ، ورد على المعتزلة والحوارج
واتهمهم بالجهل :

ومن هذه الأخبار قوله ﷺ :

« لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر » .

(١) أول شافع أى أول طالب للشفاعة ، وأوله مشفع أى أول مقبوله
الشفاعة .

« لا يدخل الجنة قاطع ».

« لا يدخل الجنة العاق لوالديه والديوث ورجلة النساء »^(١).

« من قتل نفسا معاهدة بغير حقها حرم الله عليه الجنة أن يشتم ويجهأ ».

وذكر أن المراد أحد معنيين :

الأول : لا يدخل الجنة أى بعض الجنان أى التى هى أشرفها وأعلاها وأكثرها نعيما وسرورا وبهجة .

الثانى : كل وعيد فى الكتاب والسنة لأهل التوحيد فإنما هو على شريطة أى إلا أن يشاء الله أن يغفر ويصفح ويتكرم .

كما ساق المؤلف الأخبار التى تنبئ دخول النار على من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان أو مات لا يشرك بالله شيئا والتى احتج بها المراجعة فتوهوا أن مرتكب هذه الذنوب كامل الإيمان لا نقص فى إيمانه .

واختار أن المراد لا يدخلها دخول الأبد كدخول أهل الشرك والأوثان ، أو لا يدخلون النار موضع الكفار منها وإنما يدخلون مواضع أخرى للعذاب المنقطع الخاص بمصاة المؤمنين .
وبين جزاء آخر أهل النار خروجاً منها ودخولاً الجنة .

• • •

(١) أى المترجلة التى تنسب بالرجال .

ملاحظات :

١ — الكتاب قائم على الروايات والآثار والاحتجاج بنصوص الكتاب والسنة ، وليس فيه جدل المتكلمين ولا تفصيلات القضايا العقلية ولا تشقيقات المسائل الكلامية .

وعبارات المؤلف — كما وصفها محقق الكتاب — فيها ركاكة وضعف في التأليف (١) .

٢ — أسلوب المؤلف خطابي يعتمد على إثارة العاطفة ، فيستخدم أساليب الاستفهام وأوصاف التشجيع وعبارات التعجب والاحتجاج باللازم على الخصم .

وعلى سبيل المثال فهو يقول :

وأما احتجاج الجهمية على أهل السنة والآثار في هذا النحو بقوله « ليس كئله شيء » ، فن القائل إن الخالقنا مثلا أو إن له شبيها ١٩ .

وهذا من التوجيه على الرخاع ، والسفل يؤمنون بمثل هذا على الجبال ، يومومونهم أن من وصف الله بما وصف به نفسه في محكم تنزيله أو على لسان نبيه ﷺ فقد شبه الخالق بالخلق ، وكيف يكون خلقه مثله يا ذوى الحجة (٢) ١٩ .

ويقول ردا على الجهمية :

« مقاتلهم هذه توجب أن على أهل التوحيد الكفر بالقرآن وترك

(١) ص ١٦٢

(٢) ص ٢٨

الإيمان به ، وتكذيب القرآن بالقلوب والإنكار بالأسن ، فأقذر بهذا من مذهب ١١ وأقبح هذه الوجوه عندهم ، عليهم لعائن الله (١) ١١

٣ — يكثر المؤلف من وصف الجهمية والمعتزلة بالكفر والفسق والضلالة ، ويدعو عليهم باللعنة .

وعلى سبيل المثال يقول :

• وزعمت الجهمية عليهم لعائن الله .

• ومعبود الجهمية عليهم لعائن الله كالأنعام التي لا تسمع ولا تبصر .

• نذكروهم الجهمية وزورهم وكذبهم على علماء أهل الآثار ، ورميهم خيار الخلق بعد الأنبياء بما الله قد نزههم عنه وبرأهم منه .

• لا كما زعمت الكفوة من الجهمية المعطلة .

• لعله كان يحضر مجالس أهل الويغ والضلالة من الجهمية المعطلة والقدرية المعتزلة .

وبعد — فالكتاب يمثل نهاية مرحلة الصراع السياسي وبداية مرحلة الصراع الفكري التي أشرنا إليها في حديثنا عن نشأة علم العقيدة .

ويعد مصدرا أساسيا لفكر ابن تيمية وأنصار الاتجاه السلفي الحديث .

المواقف في علم الكلام

لمعتمد الدين عبد الرحمن الإيجي
المتوفى سنة ١٧٥٦ هـ

- المقدمة
- الموقف الأول : في المقدمات
- الموقف الثاني : في الأمور العامة
- الموقف الثالث : في الأعراض
- الموقف الرابع : في الجواهر
- الموقف الخامس : في الإلهيات
- الموقف السادس : في السمعيات
- خاتمة المواقف

المواقف في علم الكلام

المقدمة :

هذا الكتاب^(١) من تأليف عضد الدين القاضى عبد الرحمن بن أحمد الإيجى المتوفى سنة ٧٥٦ هـ ، وقد بين في مقدمته أن أرفع العلوم وأعلاها ، وأنفعها وأجداها ، وأحراها بعقد المهمة بها ، وإلقاء الشراشر^(٢) عليها ، وآداب النفس فيها ، وصرف الزمان إليها — علم الكلام .

ورأى المؤلف في زمنه أن هذا العلم قد اتخذ ظهريا ، وصار طلبه عند الأكثرين شيئا فريا ، فأراد أن يسلك بطلاب العلم مسالك التحقيق .

وتصفح المؤلف الكتب المصنفة في هذا الفن فلم ير فيها ما فيه شفاء العليل أو رواء لتليل ، سبيا والهمم قاصرة والوغبات فاترة ، والدواعى قليلة ، والصوارف مكاثرة .

كما وجد المؤلف أن الكتب المصنفة إما مختصرات قاصرة عن إفادة المرام ، وإما مطولات مدهشة للأفهام ، وأن من المؤلفين السابقين من غرضه نقل المذاهب والآقوال وتكثير السؤال والجواب ولا يبالي بالام المآل .

ومنهم من يلفق مغالط لترويج رأيه ولا يدري أن النقد من ورائه . ومنهم من يكبر حجم الكتاب بالبسط والتكرار ليظن أنه بحر زغار .

(١) ط عالم الكتب — بيروت ، ومكتبة المتنبي بالقاهرة ، ومكتبة :

سعد الدين بدمشق . .

(٢) لقاء الشراشر : الخرص عليه وجبه

ومنهم من هو كحاطب ليل وجالب رجل وخيل^(١)، ولا يستعمل عقله
ليعرف أغث ما يأخذه أم ثمين ١٩
وسخيف ما ألفاه أم متين ١٩
وامتدح المؤلف كتابه فقال :

فداني الحذب على أهل الطلب ، ومن له في تحقيق الحق أرب ، إلى أن
كتبت هذا كتابا مقتصدا ، لا مطولا مملا ولا مختصرا غخلا ، أودعته
لب الأبواب ، وميزت فيه القشر من اللباب ، ولم آل جهدا في تحرير
المطالب ، وتقدير المذاهب ، وترك الحجاج تنبخر اقتضا ، والشبه
تتضاءل اقتضا .

وأكد المؤلف أنه نبه على نكت هي ينابيع التحقيق ، وفقر تهدي
إلى مظان التدقيق ، وأنه نظر من الموارد إلى المصادر ، وتأمل المخارج
قبل أن يضع قدمه في المداخل ، وأنه رجع القهقري يتأمل فيما قدم هل فيه
من قصور ؟ وهل يرى من فتور أو فطور ؟ ١

والكتاب مرتب على ستة مواقف ، والمواقف مقسمة إلى مراصد ،
والمراصد مقسمة إلى مقاصد .

• • •

(١) الرجل بكسر الجيم الماشي ، والخيل الواكب ، والمعنى أنه يسوق
الجميع ويصيح عليهم دون تمييز بين ما ينفع وما لا ينفع .

الموقف الأول :

في المقدمات

وتحدث المؤلف هنا عما يجب تقديمه في كل من التعريف والموضوع والفائدة والمرتبة والمسائل والتسمية .

وعرف علم الكلام بأنه علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه .

ثم تكلم عن تعريف مطلق العلم وذكر ثلاثة مذاهب هي :

١ - أنه ضروري واختاره الإمام الرازي .

٢ - أنه ليس ضروريا ويعسر تحديده، وبه قال إمام الحرمين الجويني والغزالي .

٣ - أنه نظري .

ثم ذكر أقسام العلم إلى تصور وتصديق، وانقسام العلم الحادث إلى ضروري ومكتسب، وحكى مذاهب العلماء في هذا المجال .

ثم قسم العلوم الضرورية إلى الوجدانيات وهي قليلة النفع في العلوم لأنها غير مشتركة، فلا تقوم بها حجة على الغير.. وإلى الحسيات والبدهييات، والناس فيها فرق أربع :

١ - المعترفون بهما وهم الأكثرون .

٢ - القادحون في الحسيات فقط .

٣ - القادحون في البدهييات فقط .

٤ - المنكرون لهما جميعا وهم السوفسطائية .

ثم بسط القول في النظر، فساق تعريفه وانقسامه إلى صحيح وفاسد .

وبين أن النظر الصحيح يفيد العلم عند الجمهور، وشرح كيفية إفادة النظر للعلم، وتكلم عن النظر في معرفة الله تعالى وأنها واجبة إجماعاً، لكنهم اختلفوا في طريق الثبوت هل هو السمع أو العقل ؟ وما أول واجب على المكلف ؟

ثم ذكر أنواع الاستدلال وهي إما بالكلية على الجزئ وهو القياس، وإما بالجزئ على الكل وهو الاستقراء، وإما بجوئ على جزئ وهو التمثيل ويسميه الفقهاء قياساً.

وعد من الطرق الضعيفة قياس الغائب على الشاهد، لأنه لا بد من إثبات حلة مشتركة، وهو مشكل لجواز كون خصوصية الأصل شرطاً أو الفرع مانعاً.

ثم عدد القضايا القطعية السبع وهي :

الأوليات، وقضايا قياساتها معها، والمشاهدات، والمجربات، والحدسيات، والمتواترات، والوهميات.

وعدد الظنية أربعاً هي :

المسلطات والمشهورات والمقبولات والمقرونة بالقرائن.

ثم قسم المؤلف الدليل إلى عقلي بجميع مقدماته، أو نقلي بجميعها، أو مركب منها.

وطرح سؤالاً في نهاية هذا الموقف هو :

هل الدلائل الثقيلة تفيد اليقين ؟

وجاء الجواب هكذا :

قيل : لا، لتوقفه على العلم بالوضع والإرادة.

والأول إنما يثبت بنقل اللغة والنحو والصرف، وأصولها مثبتة برواية الأحاد، وفروعها بالأقيسة، وكلاهما ظنيان.

والثاني يتوقف على عدم النقل (إلى معنى آخر شرعى) والاشتراك
والمجاز والإضمار والتخصيص والتعميم والتأخير ، والكحل لجوازه لانجوز
باتتفائه بل غايته القطن .

ثم بعد الأمرين لابد من العلم بعدم المعارض العقلى ، وعدم المعارض
العقلى غير يقينى ، إذ الغاية عدم الوجدان ، وهو لا يفيد القطع بعدم
الوجود .

فقد تحقق أن دلالتها تتوقف على أمور ظنية فتكون ظنية ، لأن
الفرع لا يزيد على الأصل فى القوة .
والحق أنها قد تفيد اليقين لقرائن مشاهدة أو متواترة تدل على انتفاء
الاحتمالات . .

الموقف الثانى :

فى الأمور العامة

ويعنى المؤلف بالأمور العامة ما لا يختص بقسم من أقسام الوجود ،
التي هى الواجب والجوهر والعرض .

وبدأه بهذا التساؤل : هل المعدوم ثابت أم لا ؟ وهل هناك واسطة
بين الوجود والمعدوم - وهو الحال - أم لا ؟

ثم تسكلم عن الوجود والعدم فى التعريف ، وأنه مشترك ، وأن
الوجود نفس الماهية أو جوؤها أو زائد عليها ، والوجود الفهمى ، وهل
المعدومات تمايز أم لا ؟ وهل المعدوم شيء أم لا ؟

ثم بحث المراد بالشئ هل هو الوجود ، أو المعلوم ، أو هو القديم
حقيقة وللحادث مجازاً ، أو هو الجسم .. الخ وانتهى إلى أن النزاع لفظى .

(١١ - التبيين)

وتكلم عن الحال الذى هو واسطة بين الموجود والمعدوم وقال :
أثبتته إمام الحرمين والقاضى منا وأبو هاشم من المعزلة، وبطلانه ضرورى
وساق تعريفات القائلين بالحال ... ثم شرح الماهية تحت اثني عشر
مقصداً منها :

- ١ - تميز الماهية عما سواها ..
 - ٢ - الماهية إذا أخذت مع قيد زائد تسمى غلوطة وبشرط شيء ،
ووجودها بما لا مزية فيه .
 - وإذا أخذت بشرط الخلو عن اللواحق سميت مجردة ، وبشرط
لا شيء ، وأنها لا توجد فى الخارج وإلا لحقها الوجود والتعين فلم تكن
مجردة .
 - ٣ - قال أفلاطون يوجد من كل نوع فرد مجرد أزل أبدي قابل
للمتقابلات ..
 - ٤ - الماهية إما بسيطة أو مركبة .
 - ٥ - فى تقسيم الأجزاء .
 - ٦ - الماهيات هل هى مجعولة أم لا ؟
 - ٧ - المركب إما ذات وإما صفة ..
 - ٨ - الماهية تقبل الشراكة دون التعين ، فهو غيرها ، وقد اختلف
فى التعين هل هو وجودى أم لا ؟
- ثم انتقل المؤلف إلى الوجوب والإمكان والامتناع وساق أبحاث
الواجب لذاته ، وأبحاث الممكن لذاته ، وأبحاث القديم ، وأبحاث
الحديث وقال إن الحادث هو المسبوق بالعدم وعدم الحادث متقدم على
وجوده ضرورة ..

ثم تكلم عن الوحدة والكثرة ، وعرف الوحدة بكون الشيء
لا ينقسم إلى أمور تشاركه في الحقيقة ، وعرف الكثرة بكون الشيء
بحيث ينقسم إلى أمور تشاركه في الحقيقة ..

وأكد مجموعة قضايا منها أن الاثنين هما المتغايران ، وأن الاثنين
لا يتحدان ، وأن الاثنين عند أهل الحق ثلاثة أقسام :
المثلان والضدان والمتخالفان .

وختم الموقف الثاني بالحديث عن العلة والمعلول وبين أن المحتاج
إليه يسمى هلة ، والمحتاج يسمى معلولا ، وأن العلة إما جزء الشيء
أو خارج عنه ، وأن الواحد بالشخص لا يعمل بعلةتين مستقلتين ، وأنه
يجوز عند المتكلمين استناد آثار متعددة إلى مؤثر واحد بسيط ، ومنعه
الحكمة إلا بتعدد آلة أو شرط أو قابل ..

وشرح معنى الدور والتسلسل وحكم بأنهما من المحال ..

• • •

الموقف الثالث :

في الأعراض

بدأ بمقدمة في تقسيم الصفات إلى نفسية تدل على الذات دون معنى
زائد ، ومعنوية وهي التي تدل على معنى زائد ..

ثم عرف العرض وذكر أقسامه عند المتكلمين والحكمة ، وشرح
أحكامه بأنه لا ينتقل ، ولا يجوز قيام العرض بالعرض ، ولا يقوم
العرض بعلمين ، ولذلك نجزم بأن السواد القائم بهذا الحل غير القائم بالحل

الأخر ، وذهب الشيخ الأشعري ومتبعوه إلى أن العرض لا يبقى زمانين .
وقالت الفلاسفة ببقاء الأعراض ..

ثم تكلم عن الكم وخواصه وأقسامه ، والزمان وحقيقته ، والمكان
ووجوده ..

ثم خاض المؤلف في الكيفيات وقسمها إلى أربعة :

المحسوسة ، والنفسانية ، والمختصة بالكميات ، والاستعدادات ، وقسم
المحسوسة إلى الملموسات والمبصرات والمسوعات ... وتكلم في الكيفيات
النفسانية عن الحياة والموت والعلم والجهل ومراتب العقل ، والمزاج ،
والحبة واللذة والألم ..

وتكلم في الكيفيات المختصة بالكميات عن الزوجية والفردية
والتثليث والتربيع والخط المستقيم ..

وأخيرا تكلم عن المقولات النسبية وأنواع الكون الأربعة والحركة
والكم والكيف والعلة للحركة الطبيعية ..

وشرح خواص المضاف وتقسيمات الإضافة وأنواع التقدم بالعلية
والذات والزمان والشرف والرتبة ..

الموقف الرابع :

في الجواهر

وبدأ بتقسيم الحكماء الجوهر إلى ما كان حالا وهو الصورة ، وما كان محلا لها وهو الهيولى ، وما كان مركباً منهما وهو الجسم ، وما كان متعلقاً بالجسم تعلق التدبير والتصرف وهو النفس وإلا فهو العقل ..

وهذا بناء على نقي الحكماء للجوهر الفرد ..

وقال المتكلمون لا جوهر إلا المتحيز ، فإما أن يقبل القسمة وهو الجسم أولا يقبلها وهو الجوهر الفرد ..

ثم شرح حقيقة الجسم وأجزائه ، وأثار بعض القضايا الهندسية كالمربع والمثلث والدائرة ، والضلع ، والقطر ، والوتر ، والمحيط ..

ثم تكلم عن الأفلاك وقال إن عددها بالرصد تسعة وهي فلك الأفلاك وهو المسمى بالفلك الاطلسي ، وبالعرش المجيد في لسان الشرع ، وتحتة فلك الثوابت ثم فلك زحل ثم فلك المشتري ثم فلك المريخ ثم فلك الشمس ثم فلك الزهرة ثم فلك عطارد ثم فلك القمر وهو السماء الدنيا ، وعاض في حركة الأفلاك والفصول الأربعة والبروج ، وخسوف القمر وكسوف الشمس ، والعناصر الأربعة وكروية الأرض وتضاريسها وطبقاتها ..

وشرح معاني المطر والثلج والظل والصقيع والدخان والرعد والبرق والصاعقة والشهب والأذئاب والنيازك ..

وقسم المعادن إلى متطرقة كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد ، وإلى غير متطرقة كالزئبق والزرنيخ ..

- ١٦٦ -

وقسم المزاج إلى :
الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .

وقسم النفس إلى :
النباتية والحيوانية والإنسانية .

وساق الأدلة على حدوث الأجسام وصحة فناء العالم وأن الجسم
لا يخلو عن العرض وضده ، وأن الأبعاد متناهية سواء كانت في ملاء
أو خلاء ..

وختم بمجموعة مباحث تتعلق بالنفس والعقل ..

* * *

الموقف الخامس :

في الإلهيات

وقد شرح المؤلف هذا الجانب في مجموعة اتجاهات ، سماها مراصد ،
هي على النحو التالي :

١ - إثبات الصانع :

وذكر مسائل المتكلمين والحكماء في الاستدلال على وجود الله تعالى
بحدوث العالم وإمكانه ..

وأشار إلى أن ذاته تعالى مخالفة لسائر النوات ، فهو سبحانه منزه
عن المثل والند ..

وتكلم عن أن وجوده تعالى نفس طهيته أو زائد عليها ؟

وأنه مساو لوجود الممكنات أو مخالف ؟

٢ - في تنزيه تعالى :

وأراد بالتنزيه الصفات السلبية وهي أنه تعالى ليس في جهة ولا مكان ، وأنه تعالى ليس بجسم ، وليس جوهرأ ولا عرضاً ، وليس في زمان ، وأنه تعالى لا يتحد بغيره ولا يحل في غيره ، وأنه تعالى يتمتع أن يقوم بذاته حادث ، ولا يتصف بشيء من الأعراض . .

٣ - في توحيده تعالى :

وهو أنه يتمتع وجود إلهين مستجمعين لشرائط الإلهية وساق دليل المتكلمين والحكام . .

٤ - في الصفات الوجودية :

تكلم عن إثبات الصفات على وجه عام ثم تكلم عن القدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والحياة والكلام . .
وشرح مسألة القرآن هل هو مخلوق أو قديم ؟ ثم ذكر صفات اختلف فيها وهي :

البقاء هل هو زائد على الوجود أم لا ؟

والقدم هل هو قديم بنفسه أم بقدم زائد ؟

والاستواء والوجه واليد والعينان والجنب والقدم والأصبع واليمين هل هذه صفات أو معان مجازية ؟

٥ - فيما يجوز عليه تعالى :

وبحث هنا موضوعين :

الأول : الرؤية وجعل الحديث عنها في مقامات ثلاثة :

(١) الصحة فذهب الأشاعرة إلى أنه تعالى يصح أن يرى ، ومنعه الأكثرون .

(ب) وقوع الرؤية ، والآراء ثلاثة : يصح ويرى ، لا يرى ولا يصح ، يصح ولا يرى ..

(ج) شبه المنكرين ، وقسمها إلى عقلية ونقلية .

الثاني : في العلم بحقيقة الله تعالى ، والكلام في الوقوع والجواز ، أما الوقوع فإن حقيقة الله تعالى غير معلومة للبشر ، وعليه جمهور المحققين ، وقد عالف فيه كثير من المتكلمين .

وأما الجواز ، ففي جواز العلم بحقيقة الله تعالى خلاف ، ومنه الفلاسفة .

٦ — في أفعاله تعالى :

وقد طالج مجموعة قضايا مهمة هي :

• أن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله تعالى وحدها ، وقالت المعتزلة بقدرة العبد وحدها ، وقالت طائفة بالقدرتين .

• التوليد فالمعتزلة لما استندوا أفعال العباد إليهم ورأوا فيها ترتباً قالوا بالتوليد ، وهو أن يوجب فعل لفاعله فعلاً آخر ، نحو حركة اليد والمفتاح وقد أبطله الأشاعرة لاستناد جميع الممكنات إلى الله تعالى ابتداءً ...

• البحث عن أمور صرح بها القرآن وانهقد عليها الإجماع وهم يؤولونها وهي :

— الطبع والختم والأكنة ..

— التوفيق والهداية ..

— الأجل وهل المقتول ميت بأجله أم لا ؟

— الزرق هل هو كل ما ساقه الله إلى العبد أم هو الجلال فقط ؟

- الأسماء فالأسعر هو الله ، وأما عند المعتزلة فمختلف فيه هل هو فعل مباشر من العبد أم هو متولد من فعل الله ؟
- إرادة الله تعالى لجميع الكائنات أو للبأمر به فقط ؟
 - الحسن والقبح شرعيان أو عقليان ؟
 - تكليف ما لا يطاق جائز عند الأشاعرة ومنعه المعتزلة لقبه ؟
 - ذهب الأشاعرة إلى أن أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض ، وغالفهم المعتزلة ..

٧ - في أسماء الله تعالى :

تكلم المؤلف على أن الاسم غير التسمية ، وبين أقسام الاسم ، وشرح الأسماء التسعة والتسمين وقال عقب ذلك : فهذه هي الأسماء الحسنى ، نسأل الله ببركتها أن يفتح علينا أبواب الخير ، ويغفر لنا ، ويرحمنا ، إنه هو الغفور الرحيم .

* * *

الموقف السادس : في السمعيات :

وحصر المؤلف السمعيات في أربعة موضوعات هي :

- ١ - النبوات .
- ٢ - المعاد .
- ٣ - الأسماء والأحكام .
- ٤ - الإمامة .

وفي موضوع النبوات شرح معنى النبي وحقيقة المعجزة وكيفية حصولها وإمكان البعثة ، وإثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ ، وإعجاز القرآن ، وعصمة الأنبياء ، والمفاضلة بين الأنبياء والملائكة ..

وختم هذا الموضوع بكرامات الأولياء ، وأنها جائزة عند أهل السنة ، وواقعة خلافا للأستاذ أبي إسحق والحليمي ..

وفي موضوع المعاد شرح جوانب متعددة وعرض لقضايا كثيرة
مثل إعادة المدوم ، وحشر الأجساد ، والجنة والنار هل هما مخلوقتان ؟
والثواب والعقاب هل هما واجبان أم أن الثواب فضل والعقاب
عدل ؟

وحكم مرتكب الكبيرة وعصاة المؤمنين ، ورأى المعتزلة في
الإحباط أي إحباط الطاعات بالمعاصي ، وشفاعة سيدنا محمد ﷺ ،
والتوبة وحقيقتها وأحكامها ، وإحياء الموتى في قبورهم ، والصراط
والميزان والحساب وقراءة الكتب والخوض المورود ، وشهادة
الأعضاء ...

وفي موضوع الأسماء والأحكام تكلم عن حقيقة الإيمان وهل
يزيد وينقص ؟

وشرح حكم المخالف للحق من أهل القبلة هل يكفر أم لا ؟
وذكر تكفير كل فرقة لمخالفها ، وأنكر ذلك ، ورد دعاوى
التكفير ، وأثبت أن جمهور المتكلمين والفقهاء على أنه لا يكفر أحد
من أهل القبلة .

وفي موضوع الإمامة ناقش وجوب نصب الإمام ، وشروط الإمامة ،
وما تثبت به ، ومن هو الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ وحكم إمامة
المفضول مع وجود الفاضل ..

وأوجب المؤلف تعظيم الصحابة كلهم والكف عن القدح فيهم لأن
الله عظمهم وأثنى عليهم في غير موضع من كتابه ، والرسول ﷺ قد
أحبهم وأثنى عليهم في أحاديث كثيرة ..

خاتمة المواقف :

جاءت خاتمة الكتاب في ذكر الفرق التي أشار إليها الرسول ﷺ بقوله « ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة ، وهي ما أنا عليه وأصحابي » .

وجعل المؤلف كبار الفرق ثمانية هي :

المعتزلة — الشيعة — الخوارج — المرجئة النجارية — الجبرية — المشبهة — الناجية .

وحدد المؤلف الفرقة الناجية بأنها الأشاعرة والسلف من المحدثين وأهل السنة والجماعة .

وساق اعتقادهم ثم قال : ولأنكفر أحدا من أهل القبلة إلا بما فيه نفي للصانع القادر العليم ، أو شرك ، أو إنكار للنبوة ، أو ما علم بحديثه عليه السلام به ضرورة ، أو لمجمع عليه كاستحلال المحرمات .

وأما ما عدها فالقائل به مبتدع غير كافر ، وللفقهاء في معاملاتهم خلاف ، هو خارج عن فتننا هذا ..

• • •

تعقيب :

تحمل عضد الدين الإيجي حملا ثقيلا ، واستوعب تراثا ضخما ، وحقق قضايا عدة ، وعرض لمذاهب شتى ، شملت العلم في فنونه كلها ..

لقد غاض في المنطق حين تكلم عن النظر والتصور والتصديق وأنواع الاستدلال .

وخاض في الفلسفة حين تكلم عن الجواهر والعرض ، والوجوب والإمكان والحدوث ، والوحدة والكثرة ، والعلة والمعلول .

وخاض في الفلك حين تكلم عن الكواكب والنجوم وحركاتها ، والكسوف والخسوف .

وخاض في الرياضيات حين تكلم عن المثلث والمربع والدائرة والخط المستقيم .

وخاض في الجغرافيا حين تكلم عن كروية الأرض وطبقاتها ومعادنها والعناصر الأربعة ..

وخاض في الكيمياء حين تكلم عن المركبات والعناصر ..

وخاض في الطبيعة حين تكلم عن الصوت والضوء ..

وخاض في علم النفس حين تكلم عن النفس والعقل والمزاج واللذة والألم ..

بالإضافة إلى كل علوم الشريعة واللغة .

وساق عضد الدين الإيجي كل مذاهب الفلاسفة والمتكلمين في قضايا العقيدة بأمانة في النقل والعرض ، ودقة في المناقشة والنقد .

الأمر الذي يدل على عقلية الجبارة ، وقدرته الفائقة ، ومهارته العالية .

ومع ذلك فإن التساؤل المطروح هو :

هل قضايا العقيدة متوقعة على هذه المقدمات البعيدة والخيرية التي استوعبت أربعة مواقف من ستة ، هي مجموعة مباحث الكتاب ؟ !

أظن أن الأمر أهون من ذلك ، وأن أمور العقيدة في وضوحها
ويسرها لنى غنى عن هذه المسالك الوعرة ..
ولهذا وقف العلماء من هذا الاتجاه الكلامي الموهل في الفلسفة
موقفين :

موقف الرفض ، وموقف القبول ..

وعلى سبيل المثال فإن الشيخ السنوسي في عقيدته الصغرى يقول :

وليحذر المبتدئ جهده أن يأخذ أصول دينه من الكتب التي حشيت
بكلام الفلاسفة ، وأولع مؤلفها بنقل هوسهم وما هو كفر صراح من
عقائدهم ، التي ستروا نجاستها بما ينهم على كثير ، من اصطلاحاتهم
وعباراتهم التي أكثرها أسماء بلامسميات .

وذلك ككتب الإمام الفخر في علم الكلام ، وطوالع اليبضاوى ،
ومن هذا حذوهما في ذلك .

وقل أن يفلح من أولع بهجة كلام الفلاسفة أن يكون له نور إيمان
في قلبه أو لسانه .

وفي حاشيته على الكتاب قال الشيخ محمد المدسوقي :

« أو من سلك مسلكها (الفخر الرازى واليبضاوى) كالأرومى
والعلامة السعد والمضد وابن عرفة ، .

ثم نقل عن البرهان اللقاني قوله في هداية المريد :

إن كلام الأوائل كان مقصوراً على الذات والصفات والنبوات
والسمعيات ، فلما حدثت طوائف المتبدعة كثر جدالهم مع علماء الإسلام ،
وأوردوا شبهها على ما قرره الأوائل ، وخططوا تلك الشبه بكثير من

— ١٧٤ —

قواعد الفلاسفة ليستروا ضلالهم ، فتصدى المتأخرون كالفتخر ومن ذكر معه لدفع تلك الشبه ، وهدم تلك القواعد ، فاضطروا لإدراجها في كتبهم لأجل أن يتمكنوا من الرد عليها ، ببيان المقصود منها ، وإيضاح مفاسدها .

فظهر أنهم معذورون في إدراجها في كتبهم ، ولا لوم عليهم في ذلك ، ولا يصح توجيه الذم إليهم .

وتحذير المتأخرين عن تعاطي كتبهم إنما هو للقاصرين الذين لا يصلون لفهمها ، ثم نقل عن الشيخ الملوى أنه لا اعتراض على الإمام الفخر الرازى ومن معه لأنهم فعلوا ذلك ليتذكروا من الرد على طوائف المبتدعة ، فقد فعلوا المناسب في ذلك الزمان ، (١) .

(١) حاشية على شرح أم البراهين ، تأليف محمد بن أحمد بن عوفه اللصوقى المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ وبهامش شرح أم البراهين لمحمد بن يوسف السنبوسى الحسينى المتوفى سنة ٨٩٥ هـ ص ٧٠ ط الحلبي سنة ١٣٥٨ هـ سنة ١٩٣٩ م .

شرح العقيدة الطحاوية

للعلامة ابن أبي العز الدمشقي

المتوفى ٥٧٩٢ هـ

- تقديم
- قضية التوحيد
- نبوة سيدنا محمد ﷺ
- رؤية الله تعالى
- مسائل عقدية
- ملاحظات

شرح العقيدة الطحاوية

تقديم :

هذا الكتاب من أهم كتب العقيدة السلفية بين طلاب العلم في المملكة العربية السعودية .

والكتاب يقوم على متن وشرح .

أما المتن فهو المسمى « العقيدة الطحاوية » نسبة إلى الإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سبله بن عبد الملك الأزدي الطحاوي من قرية طحا بصعيد مصر ، ولد سنة ٢٣٩ هـ وتوفي سنة ٣٢١ هـ .

أما الشرح فقد ظل مجهولاً جينا من الدهر ثم تبين أنه لصدر الدين محمد ابن علاء الدين علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي ، المولود سنة ٧٣١ هـ والمتوفى بدمشق سنة ٧٩٢ هـ على الأرجح .

وكلا الإمامين حنفي المذهب ، قال الشارح في مقدمته : « ومن قام بهذا الحق (حفظ أصول الدين) من علماء المسلمين الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي ، نعمة الله برحمته ، بعد الماتين ، فإن مولده سنة تسع وثلاثين وماتين ، ووفاته سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة .

فأخبر — رحمه الله — عما كان عليه السلف ، ونقل عن الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، وصاحبه أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الخيري الأنصاري ، ومحمد بن الحسن الشيباني رضي الله عنهم — ما كانوا يعتقدون من أصول الدين ، ويدينون به رب العالمين ،^(١) .

(١) شرح العقيدة الطحاوية — تحقيق جماعة من العلماء ص ٦٩ ط المكتب الإسلامي سنة ١٣٩٩ هـ بيروت .

(١٢ — التمهيد)

ونعى الشارح على البدع والتحريفات التي ظهرت بعد هصر الراشدين،
ورفض مسألة التوفيق بين العقل والنقل على طريقة المتكلمين والفلاسفة،
وسمى عقلياتهم جهليات.

قضية التوحيد :

ثم بدأ الشارح التعليق على عبارة المؤلف :

« نقول في توحيد الله معتقدين — بتوفيق الله — أن الله واحد
لا شريك له . »

فبين أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق ، وأوله مقام
يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل .

واختار الشارح أن أول واجب على المكلف هو الشهادتان ، وليس
النظر ، ولا القصد إلى النظر ، ولا الشك .

وقسم التوحيد إلى ثلاثة أنواع :

• توحيد الأسماء والصفات .

• توحيد الربوبية .

• توحيد الإلهية .

وناقش نقاة الصفات في قولهم :

إن إثبات الصفات يستلزم تعدد الواجب .

وذهب إلى أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين في
الصفات والأفعال ، فإن الثنوية من المجوس ، والماتوية القائلين بالأصاين ،
النور والظلمة ، وأن العالم صدر عنها — متفقون على أن النور خير من
الظلمة ، وهم متنازعون في الظلمة ، هل هي قديمة أو محدثة ، فلم يثبتوا
ربين متماثلين .

وأما النصارى القائلون بالتثليث، فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب
ينفصل بعضهم عن بعض، بل يتفقون على أن صانع العالم واحد، ويقولون
باسم الآب والابن وروح القدس، إله واحد، وقولهم في التثليث متناقض
في نفسه وقولهم في الحلول أشد منه .

ويرى الشارح أن توحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون
العكس ..

ويسوق اتفاق أهل السنة على أن الله ليس كمثل شيء، لا في ذاته
ولا في صفاته ولا في أفعاله، ثم يستدرك بأن لفظ التشبيه قد صار في
كلام الناس لفظاً بجملاً يراد به المعنى الصحيح .

ويؤكد الشارح أن النفاة المعطلة أحسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن
التشبيه بشيء من خلقه ولكن أساءوا في نفي المعاني الثابتة لله تعالى
في نفس الأمر ..

والمشبهة أحسنوا في إثبات الصفات ولكن أساءوا بزيادة التشبيه .

فكلا الفريقين زادوا على الحق فضلوا ..

وأتهم الشارح المتكلمين بأنهم أدخلوا في أسماء الله تعالى لفظ القديم،
وأن كثيراً من السلف والخلف ينكرون ذلك .

ويقسم الشارح إرادة الله تعالى إلى نوعين :

• إرادة قدرية كونية وهي المشيئة العامة الشاملة لجميع الموجودات ..

• إرادة دينية شرعية وهي المتضمنة للحبة والرضا ..

وحول تعلق الحوادث بذات الرب تعالى يرى ابن أبي العز أنه لم

يرد نفي لذلك ولا إثبات في كتاب ولا سنة، وأن هذه المسألة فيها
إجمال :

فإن أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثه ، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن ، فهذا نفي صحيح . .

وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية ، من أنه لا يفعل ما يريد ، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء ، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ، ولا بوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والاتيان كما يليق بجلاله وعظمته ، فهذا نفي باطل . . (١)

ويقبل الشارح تسلسل الحوادث أزلا وأبداً ، فأفعال الله تعالى دائمة في الأبد ، كلها انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيماً آخر لا نفاد له ، وأن كل فعل من طرف الأزل مسبوق بفعل آخر ، ويرفض أن يكون الله موجوداً وحده ولا مخلوق معه أصلاً ، لأن الفعل أكل من عدم الفعل ، وأن الفعل والإرادة متلازمان . .

ويسمى هذا التسلسل بالتسلسل الواجب الذى دل عليه العقل والشرع (٢) . .

ويحرص الشارح على إثبات الجهة والفوقية لله تعالى ويقول :
لو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع أنه قائم بنفسه ، غير خالط للعالم ، لكان متصفاً بضد ذلك ، وضد الفوقية السفول ، وهو مذموم على الإطلاق ، لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده . .
ولو لم يكن قابلاً للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها ،

(١) ص ١٢٩

(٢) راجع ص ١٣٥

ويسوق الشارح عشرين نوعاً من النصوص يراها دليلاً على مذهبه ،
منها قوله تعالى « وهو العلي الكبير » ..

• • •

نبوة سيدنا محمد ﷺ :

يرى ابن أبي العز الدمشقي أن دلائل نبوة الأنبياء غير محصورة في
المعجزات ، وأن من عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لفعله
— علم يقيناً أنه ليس بشاعر ولا كاهن ..

ويؤكد الشارح أن إنكار رسالة سيدنا محمد ﷺ طعن في الرب
تبارك وتعالى ، ونسبة له سبحانه إلى الظلم والسفاهة لأنه أيده ونصره
ومكن لدينه ودولته ..

وفرق بين النبي والرسول بأن من نبأ الله بخبر السماء ، إن أمره أن
يبلغ غيره فهو نبي رسول ، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس
برسول ، فالرسول أخص من النبي ..

وشرح ابن أبي العز مسألة التفاضل بين الأنبياء ، وأثبت
لسيدنا محمد ﷺ أعلى مراتب المحبة وهي الخلعة ، ورفض قول من
قال إن الله خص إبراهيم بالخلعة ومحمداً بالمحبة ، وقال إن الخلعة تخص
إبراهيم ومحمداً عليهما الصلاة والسلام ، واستدل بالحديث الشريف
« إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً » وبالحديث الآخر
« لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن
صاحبكم خليل الرحمن » .

.. أما المحبة فهي عامة لكل المؤمنين ..

ثم تكلم عن ختم النبوة وعموم الرسالة المحمدية ، والإسراء والمعراج ،
والخوض والشفاعة .. إلخ .

• • •

رؤية الله تعالى :

عد ابن أبي العز مسألة الرؤية من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها ،
وجعلها الغاية التي شمر إليها المشعمرون ، وتنافس فيها المتنافسون .

وساق مذاهب المخالفين لأهل السنة من الجهمية والمعتزلة والخوارج
والإمامية ، ورد استدلال المعتزلة بقوله تعالى « لن تراني » وقوله جل شأنه
« لا تدركه الأبصار » ، وأكد أن أحاديث الرؤية رواها نحو ثلاثين
صحابيا .

ثم حدد محل الاتفاق بين أهل السنة ، وهو رؤية أهل الجنة لهم ،
لكنهم اختلفوا في رؤية أهل المحشر على ثلاثة أقوال :

١ — أنه لا يراه إلا المؤمنون :

٢ — أنه يراه أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم ، ثم يحتجب عن الكفار
ولا يرونه بعد ذلك .

٣ — أنه يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار .

ثم أكد الشارح أن الأمة اتفقت على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه ،
ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا محمد ﷺ خاصة ، منهم من نفي رؤيته
بالعين ، ومنهم من أثبتها له ﷺ .

وساق رأى القاضي هياض بأنه ليس هناك قاطع ولا نص في رؤية

الرسول لربه بعينه ، والمعول فيه على آتبي النجم ، والتنازع فيها مأثور ،
والاحتمال لهما ممكن .

• • •

مسائل عقديّة :

وتوالت المسائل والموضوعات فشرح ابن أبي العز :

- ميثاق بني آدم .
- القضاء والقدر .
- الإيمان بالملائكة .
- الإيمان بالكتب المنزلّة على المرسلين .
- التفاضل بين الأنبياء والملائكة ، وعدّها من فضول المسائل ،
ونقل أن أبا حنيفة توقف في الجواب عنها .
- حكم مرتكب الكبيرة .
- الإيمان والإسلام .
- طاعة ولي الأمر ولو كان جائرا عالم يأمر بمعصية .
- عذاب القبر ونعيمه .
- البعث والحساب والجزاء .
- دعاء الأحياء وصدقاتهم للأموات .
- كرامة الأولياء .
- أشرائط الساعة .

وختم الكتاب بتعريف موجز لفرق المعتزلة والجهمية والجبرية

والقدونية ، وشبه علماء المعتزلة باليهود ، وشبه عباد الصوفية بالنصارى .

* * *

ملاحظات :

١ - إن عقيدة الطحاوى محل قبول لدى جمهور العلماء سلفا وخلفا - كما قال السبكي - لكن الشارح ابن أبي العز أسقط عليها إسقاطات لا يعرفها الطحاوى ولا يقصدها .

ف عند أول عبارة للطحاوى وهى :

نقول فى توحيد الله معتقدين - بتوفيق الله - أن الله واحد لا شريك له .

إذا بالشارح يتكلم عن أول واجب على المكلف ويرجح أنه الشهادتان ، ثم يقسم التوحيد إلى ثلاثة أنواع ، هى توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ، ويثبت الجبهة والفوقية لله تعالى ، ويخوض فى أشياء ليست محل قبول لدى جمهور العلماء ، وهى تمثل اجتهاد فرد ، يؤخذ منه ويرد عليه .

وقد وقع الشارح فى حيص ييص ومأزق شديد حين وقف أمام قول الطحاوى :

« وتعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات ، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات » .

وأخذ الشارح يسوق تفسيرات ويدخل فى تأويلات حتى لا يتناقض

مع رأيه في الجهة والفوقية ، وزعم أنه كان الأولى بالشيخ الطحاوى ترك هذه الألفاظ (١) ..

٢ — إذا كان ابن أبي العز قد نعى على المتكلمين اصطلاحاتهم بتشقيقاتهم فقد وقع فيما نقده ، وخاض فيما نهى عنه ، وكان منهجه في معالجة قضايا الخلاف قائما على المنهج الكلامي (٢) .

ومن الأمور الجديرة بالاعتبار أن أنصار الاتجاه السلفي يحتجون دائما في مواجهة مخالفينهم بأن ذلك لم يرد أو لم يتكلم فيه الصحابة أو لم يعرفه السلف ..

ونسوق موقفا لابن أبي العز لعله يكون أبلغ رد على هؤلاء المتسلفين :
ففي مسألة قراءة القرآن وإهداء ثوابها للميت قال الشارح :
وأما قراءة القرآن وإهداؤها له تطوعا بغير أجره فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج ، فإن قيل :

هذا لم يكن معروفا في السلف ، ولا أرشدهم إليه النبي ﷺ ؟

فالجواب :

إن كان مورد هذا السؤال معترفا بوصول ثواب الحج والصوم والصدقة قبل له : ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن ؟

وليس كون السلف لم يفعلوه — حجة في عدم الوصول ..

ومن أين لنا هذا النقي العام ؟

فإن قيل : فرسول الله ﷺ أرشدهم إلى الصوم والحج والصدقة دون القراءة ؟

(١) راجع ص ٢٣٨ : ٢٤٥

(٢) راجع ما قلناه سابقا في نشأة علم العقيدة وتطوره

قيل : هو ﷺ لم يبتدئهم بذلك ، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم ، فهذا سأله عن الحج عن ميتة ، فأذن له فيه ، وهذا سأله عن الصوم عنه ، فأذن له فيه ، ولم يمنعهم بما سوى ذلك .

وأى فرق بين وصول ثواب الصوم - الذى هو مجرد نية وإمساك - وبين وصول ثواب القراءة والله كـ .. ؟ ، (١) .

وبعد :

فالكتاب فيه عرض لكافة عقائد الدين ، وكثير من قضاياها محل اتفاق لدى أهل السنة ، ومواطن الاختلاف تكمن فى مسألة الأسماء والصفات ، وإثبات جهة العلو والفوقية ، والكلام الإلهى الذى فسرته بالصوت والحرف .

رسالة التوحيد

للأستاذ الإمام محمد عبده

١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ

• المؤلف وسبب التأليف

• المقدمات

— علم التوحيد ومنهجه

— عصر الخلافة

— حملة المشاعل

— موقف الفلاسفة

— مذهب الأستاذ الإمام

• الإلهيات

• النبوات

• ترقى الأديان بترقى الإنسان

• انتشار الإسلام

• ولنا ملاحظات

رسالة التوحيد

المؤلف :

هو الأستاذ الإمام محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ) مفتي الديار المصرية، وتلميذ الإمام جمال الدين الأفغاني، وشيخ السيد محمد رشيد رضا ..

سبب التأليف :

شرح الشيخ محمد عبده في مقدمة رسالته^(١) أسباب التأليف ومراحل التدوين، فذكر أنه أبعد عن مصر سنة ١٢٩٩ هـ وعاش في بيروت، فدهى لإلقاء دروس في المدرسة السلطانية، فأمل على تلاميذه ما فتح الله به عليه في علم التوحيد ..

فلما عاد إلى مصر نسي ما أملى، وذهب عن خاطره جميع ما ألقى، ثم بدا له أن يشغل أوقات فراغه بمداينة شيء من علم التوحيد، فأرسل إلى بعض تلاميذه يطلب منه ما سجله في دفتره وتلقاه بين يديه ..

وحين وصلته تلك الأمانى قرأها فإذا المكتوب قريب مما أحب، فيه مسلك السلف، بلا عيب في سيرة آراء الخلف، لكنه يحتاج إلى بسط بعض عباراته، وتحريير بعض مقدماته، وزيادة ما غفل، وحذف ما فضل ..

(١) تحقيق محمود أبو رية ط الرابعة - دار المعارف بمصر

المقدمات :

رسالة التوحيد تقوم على مجموعة مقدمات وبعض مباحث تتعلق بالإلهيات والنبوات .

١ — علم التوحيد ومنهجه :

في المقدمات عرف علم التوحيد بأنه علم يبحث فيه عن وجود الله تعالى وما يجب أن ينسب له من صفات ، وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفي عنه ...

وعن الوسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم ..

ثم ذكر أن علم تقرير العقائد كان معروفاً عند الأمم ، وأن القائمين على أمر الدين قبل الإسلام قلما ينحون في بيانهم نحو الدليل العقلي ، وكثيراً ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته ..

فلما جاء القرآن نهج بالدين منهجاً يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه ولمن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه ، فأقام الدعوى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان ..

وتآخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل بتصریح لا يقبل التأويل ، وأجمع المسلمون — إلا من لا يعتد بعقله ولا دينه — أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل ..

٢ - عصر الخلافة :

وبدأ الشيخ محمد عبده يؤرخ لنشأة علم التوحيد فأكد أن النبي ﷺ كان المرجع إلى الحيرة ، والسراج في ظلمات الشبه ، ومضى زمنه وزمن الخلفيتين أبي بكر وعمر ولم يكن هناك خلاف في أصول العقائد ، وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام ، وكان الناس يفهمون إشارات الكتاب ونصوده ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يورث التشبيه ، ويرون أن له معنى غير ما يورثه ظاهر اللفظ . .

ثم حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وفتح الباب لتعدى الحدود ، وتلاعبت الشهوات بالعقول ، وأسلم بعض اليهود لبث الفتنة كعبد الله بن سبأ . .

وتوالى الأحداث وكانت الحروب بين المسلمين في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ، وانصدع بناء الجماعة وانفضت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة ، واقترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين . .

٣ - حملة المشاعل :

يرى الشيخ أن هذه الخلافات السياسية لم تقف في سبيل الدعوة الإسلامية ، ودخل الناس في دين الله أفواجا في الأطراف النائية عن مشار النزاع . .

واشتغل العلماء بأصول العقائد والأحكام اشتغالا يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ، ولا ينض فيه من نظر الفسك . . ومن أشهرهم الحسن البصري . .

وكانت أول مسألة ظهر فيها الخلاف مسألة الاختيار ، واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية . ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يتب ، ثم امتدت الخلافات إلى إثبات صفات المعاني للذات الإلهية أو نفيها عنها ، وإلى تقرير سلطة العقل في معرفة جميع الأحكام الدينية . .

والتحق بالإسلام أناس من كل ملة ، دخلوه حاملين لما كان عندهم من أفكار المانوية وكتب اليونان ، ومن لا دين له من الفرق الفارسية ، فظهر الإلحاد ، وثارت الشهوات ، وتطلعت رهوس الفتنة في العهد العباسي . .

وظل الأمر كذلك حتى جاء الشيخ أبو الحسن الأشعري في أوائل القرن الرابع وسلك مسلكه المعروف ، وسطاً بين موقف السلف وتطرف من خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر .

وارتاب في أمره الأولون وطعن كثير منهم على عقيدته ، وكفره الحنابلة واستباحوا دمه ، ونصره جماعة من أكابر العلماء كالإمام الجويني والإسفرائيني وأبي بكر الباقلاني وغيرهم ، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة . .

فانهزم من بين أيدي هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان :

— قوة الواقفين عند الظواهر .

— وقوة الغالين في الجري خلف ما تزينه الخواطر .

٤ - موقف الفلاسفة :

ثم تحدث الشيخ محمد عبده عن مذاهب الفلاسفة ، وأكد أن العقل محل التكريم من القرآن والسنة ، لكن هؤلاء الفلاسفة غلبهم أمران : الأول : الإعجاب بما نقل إليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصا عن أرسطو وأفلاطون ..

الثاني : الشهوة الغالبة على الناس في ذلك الوقت ، وهو أشأم الأمرين ، زجوا بأنفسهم في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين ، واصطدموا بعلومهم في قلة عددهم ، مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة ، قال حجة العقائد عليهم .

وجاء الغزالي ومن على طويقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالإلهيات واشتدوا في نقده ، فسقطت منزلتهم من النفوس ، ونبتتهم العامة ، ولم تحفل بهم الخاصة ، وكان هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمسائل الفلاسفة في كتب المتأخرين ، كما نراها في كتب اليبضاوى والعضد وغيرهم .

٥ - مذهب الاستاذ الإمام :

وانتهى الشيخ محمد عبده إلى تقرير هذه الحقيقة :
والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد ، لا دين تفريق في القواعد .

، العقل من أشد أعوانه ، والنقل من أقوى أركانه .. وما وراء ذلك فزغات شياطين أو شهوات سلاطين .

والقرآن شاهد على كل عمله ، قاض عليه في صوابه وخطئه ..

(١٣ - التمهيد)

الإلهيات :

بدأ الشيخ حديثه عن الإلهيات بتقسيم المعلوم إلى ثلاثة أقسام :
ممکن لذاته ، وواجب لذاته ، ومستحيل لذاته . .

وشرح حكم كل قسم وأكد أن الممكن لا يوجد إلا بسبب ولا ينعدم إلا بسبب ، وأن وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب ، ثم تكلم عن الصفات السمعية التي جاءت على لسان الشرع ولا يحيلها العقل إذا حملها على ما يليق بواجب الوجود .

ونبه الشيخ إلى أن الفكر في ذات الله وصفاته للوصول إلى حقيقة الذات والصفات ممتنع على العقل البشرى لانقطاع النسبة بين الموجودين ، وليس من شأننا أن نبحث في الكيفية . .

ثم انتقل الشيخ إلى الحديث عن أفعال الله جل شأنه ، وبين أنها صادرة عن علمه وإرادته ، وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار ، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته ، وقسم الفرق الإسلامية في هذا الجانب إلى فريقين :

١ - فريق بالغ في الإيجاب على الله حتى ظن الناظر في مزاعمهم أنهم عدوه واحدا من المكلفين يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

٢ - وفريق نفى التعليل عن أفعاله سبحانه وخلا حتى خيل للممنوع في مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قلبا ، يرم اليوم ما نقضه بالأمس ، ويفعل غدا ما أخبر بنقيضه اليوم ، أو غافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله (سبحانه ربك رب العزة عما يصفون) .

ويرى الشيخ أن الجميع متفقون على أنه تعالى منزّه عن العبث في أقواله والكذب في أقواله ، وأن وجوب الحكمة في أفعاله تعالى تابع لوجوب الكمال في علمه وإرادته ، وأن وجوب تحقق ما وعد وأوعد به تابع لكمال علمه وإرادته وصدقه . .

فلنأخذ ما اتفقوا عليه وانزد إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه . .

ثم يلخص الشيخ محمد عبده مسألة أفعال العباد في اتجاهين :

الأول : أن المؤمن يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكن الكائنات أسمى من قوى الكائنات ، وأن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد ، تصرفه على مقتضى علمه وإرادته .

الثاني : أن المؤمن يشهد بالبداهة أنه في أعماله الاختيارية عقلية كانت أو جسمانية — قائم بتصرف ما وهب الله له من المارك والقوى فيما خلقت لأجله . .

وعلى هذين الاتجاهين قامت الشرائع واستقامت التكاليف ، أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل إليه العقول .

ثم ختم الشيخ محمد عبده مباحثه في الإلهيات بالكلام عن حسن الأفعال وقبحها وأكد أن الإنسان بفطرته يميز بين الجمال والقبح ، ورأى أنه لا مانع شرعا أو عقلا من أن يصل العقل بإنسان ما إلى معرفة الله وصفاته وقدس جلاله ، والفضائل والردائل التي تؤدي إلى السعادة أو الشقاء بعد الموت . .

لكن ذلك لن يكون حالا لعامة الناس ، وقد سلب الله على الإنسان ثلاث قوى هى الذاكرة والخيلة والمفكرة ، والناس فيها مختلفون ، تتباين آثارها عليهم .

وليس فى سعة العقل الإنسانى فى الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ، ثم إن من أحوال الآخرة ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده ، لهذا كان العقل الإنسانى محتاجا إلى نبي من جنسه ليفهم منه وعنه ما فيه سعادة الدنيا والآخرة .

وقد سماه معيننا يستعين به الإنسان فى تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد ..

النبوات :

ساق الإمام محمد عبده مجموعة بحوث تحت عناوين :

- الرسالة العامة .
- حاجة البشر إلى الرسالة .
- إمكان الوحي .
- وقوع الوحي والرسالة .
- وظيفة الرسل عليهم السلام .

وتكلم فى هذه البحوث عن اصطفاء الله لرسله ، وتأيدهم بالمعجزة المقرونة بالتحدى ، ونفى الشيخ أن تكون المعجزة من نوع المستحيل عقلا ، وعدها خاضعة لناموس آخر طبيعى ، وضعه موجد الكائنات ، غاية ما فى الأمر أننا لانعرف هذا الناموس الآخر ، .

وزهد إلى أن النهى عن الآكل من الشجرة وأكل آدم منها كأنهما
رمزان إلى طورين من أطوار آدم عليه السلام ، أو مظهران من مظاهر
النوع الإنساني في الوجود ١١

ثم شرح أحوال العالم قبل الإسلام وما شابه من مشارب الوثنية
وضلالات الإباحية ، وويلات الحروب ، وندس الأخلاق ، فكان من
رحمة الله أن أرسل فيهم رجلا منهم ، يوحى إليه رسالته ، ويمنحه عنايته ،
ويمده من القوة بما يكشف تلك الغمم ، فولد محمد بن عبدالله صلى الله عليه
وسلم في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول عام الفيل (٢ من أبريل سنة
٢٥٧١ م) .

وتكلم الشيخ عن تواتر القرآن وحفظه وسلامة نصه ، وأكد أن
الإسلام جاء بالتوحيد الخالص ، وحقق حرية الإنسان ، وأنهى على
التقليد ، وصاح بالعقل صيحة أزجته من سباته ، وحقق الوحدة في الناس
ونص على أن دين الله في جميع الأزمان واحد ، وهو أفراد الله بالعبودية
والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه ، وأن
اختلاف الشرائع بين الأديان الصحيحة — سابقها مع لاحقها — مصدره
رحمة الله وورافته في إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة ،
والملاءمة للزمان ..

ترقى الأديان بترقى الإنسان :

يرى الشيخ أن الأديان جاءت والناس في معرفة مضالحهم في طور
شبه بطور الطفولة للناسي الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه إلا ما
وقع تحت حسه ، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمه ، وأن
يتناول بذنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه .

فلم تخاطب تلك الأديان الناس بما يرقى إليه سلم البرهان ، وسارت بالقوم وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في سذاجة السن ، لا يأتية إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو بصره ..

وانتهى الشيخ إلى أن الإسلام آخر الرسالات وأن محمداً خاتم الأنبياء لأنه استجمع للإنسان عند بلوغ رشده - حرية الفكر واستقلال العقل وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع ، ولم يدع أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه ، ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها .

انتشار الإسلام :

وتحدث الشيخ عن انتشار الإسلام بسرعة لم يعد لها نظير في التاريخ لما امتاز به المسلمون من عدل وما في دينهم من عقل ..

ثم أورد شبهة تلخص في أن المسلمين اليوم قد تخلفوا وتفرقوا ، وفقدوا سلطانهم ، وصاروا إخوة أعداء . مع أن الإسلام دين الوحدة والرقى والحضارة ..

وأجاب الشيخ بأن الاجتماع الإنساني شاهد بأن الإسلام دواء ناجع ، ظهر نجاحه في كل مراحل التاريخ التي عاش المسلمون فيها حنفاء لله غير مشركين به ..

فالمشكلة تكمن في المسلمين وليست في الإسلام ..

وختم الشيخ رسالته بضرورة التصديق بما جاء به محمد ﷺ بعد أن ثبت بالدليل القاطع أنه نبي يوحى إليه ..

ورأى الشيخ أنه يجب الإقتصار في الاعتقاد على ما هو صريح في الخير ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني ..

ثم أشار إلى مسألتين هما الرؤية وكرامة الأولياء ، ورأى أن الخلاف في الرؤية يمكن أن يزول لأن كلا الفريقين يمنع الرؤية البشرية المعهودة بحواسنا المعتادة .

ورأى الشيخ أن مجرد جواز صدور غارق للعادة على يد غير نبي مما تتناوله القدرة الإلهية ، ليس موضع نزاع يختلف عليه العقلاء ، ولا يجب شرعا الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين ..

وذهب الشيخ إلى أن شرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهي عن مشابهة المخلوقين .

فإن ورد ما يؤهم التشابه في متواتر وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم الله في العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد ، أو بتأويل تقوم عليه القرآن المقبولة .

• • •

ولنا ملاحظات :

أولا : إن رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده خلاصة فكر وليست دراسة بحث ، فهي رؤية نقدية تقدم رأى الشيخ في قضايا الخلاف العقدي بين المسلمين .

أما الدراسة وتفصيل المذاهب واستعراض الأدلة والترجيح بينها فلم يعتمد إليه الشيخ ولم يحرص عليه .

ولهذا تكاد تخلو الرسالة من نصوص القرآن والسنة ١١

والآيات القرآنية الموجودة في الرسالة - على ندرتها - سبق أغلبها على لجنة التفسير في الأسلوب ، وبعضها عبر عنه بالخبر دوق أن يسبق بكلية قال الله تعالى ..

أما الأحاديث فقد تقرأ عشرات الصفحات ولا يصادفك شيء منها .

ثانياً : شيء عجيب أن يتكلم الشيخ عن رسالة التوحيد فيحصرها في الإلهيات والنبوات ، ويعرض إعراضاً تاماً عن السمعيات مع أن الارتباط عضوي وكامل بين هذه الثلاثة .

وعندما عرف الشيخ علم التوحيد أغفل أيضاً جانب السمعيات ، وحصر التعريف فيها يجب ويستحيل ويجوز في حق الله تعالى وحق رسوله عليهم السلام .

ولم يأت ذكر لليوم الآخر في طول الرسالة وعرضها اللهم إلا كلمات قلائل عند الحديث عن حاجة البشر إلى الرسالة والنبى الذى سماه معينا ، فذكر أنه ليس في سعة العقل الإنسانى في الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه في تلك الدار الآخرة .. ثم إن من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده ، وهو تفصيل اللذات والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال .

ثالثاً : تأثر الشيخ تأثراً كبيراً بنظرية تطور الأنواع للفيلسوف الإنجليزى داروين ، وملككت عليه عقله وفكره فلوى نصوصاً ، ورفض أخباراً ، وتناول مواقف على غير وجهها الصحيح .

فقال عن النهى عن الأكل من الشجرة ومعصية آدم بالآكل منها ..

كانهما رمزاً إلى طور من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الإنسانى في الوجود .. ١١

وقد فصل موقفه هذا تفصيلاً تاماً في تفسيره لسورة البقرة ، وتجراً جمراً كبيرة على عالم الملائكة والجن والإنس ..

كما أن دعواه بأن الأديان ترقى بترقى الإنسان وأن البشرية بدأت بالسذاجة والحس وانتهت إلى العقل والرشد - هي دعوى متأثرة بنظريات تطور العقيدة عند الغربيين، وهي تصادم الدين والعقل والتاريخ..

فالدين هو الدين في بدء الإنسانية وفي ختامها، أصوله واحدة، واستنهض الوسل في كل زمان ومكان العقل والحس معا -

ولم يكن الإنسان في فترة من التاريخ فاقدا للعقل أو بلا وعى فكري ودراسة تاريخ الحضارة في مصر القديمة وبلاد الرافدين والهند والصين تؤكد عمق العقل الإنساني الذي صاغها.

ورابعا: الهدف الذي سعى إليه الشيخ في رسالته هو تجاوز نقاط الخلاف وتجميع الكلبة حول جوانب الاتفاق..

ورأى الشيخ في كثير من مباحثه أن الخلاف نشأ من غلبة التعصب وعدم صدق الرؤية .

وشبه الفرق المتخالفة بالإخوة الأعداء ووصف اختلافاتهم بمقاتلات الحق الذين اختبطوا اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق في السير إلى مقصد واحد ، حتى إذا التقوا في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المختبر ...

فظن كل أن الآخر هدو يريد مقارعة على ما يعده ، فاستنحر بينهم القتال ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جملهم دون المطلب .

ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشدا إلى من بقى وهم الناجون ..

ولو تعارفوا لتعاونوا جميعا على بلوغ ما أملوا ، ولواقهم الناية إخوانا، بنور الحق مهتدين^(١) ..

خاتمة

والى هنا نكون قد مهدنا لدراسة العقيدة الإسلامية ؛ وقدما آفاقا للبحث والنظر ، وعرفنا أهمية دراسة العقيدة ، ومباحثها ، ونشأة العلم وتطوره ..

وقررنا منهج الإسلام في تأسيس اليقين ، وتأصيل الإيمان ..

وأكدنا أن العقيدة الإسلامية صوت الفطرة ، ودعوة الأنبياء ، والدين الخالص لله رب العالمين ..

وعرضنا نماذج لمؤلفات قدمها العلماء لدراسة العقيدة ..

وعلينا أن نواصل مسيرة العطاء العلى ، وعسى الله أن ييسر لنا دراسات في الإلهيات والنبوات والسمعيات ، وأن ينفع بها ، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ..

والحمد لله الذى بنعمته تم الصالحات ..

كتب للمؤلف

في العقيدة

- ١ - في نور العقيدة الإسلامية .
- ٢ - أدب الحديث عن الله .
- ٣ - علم التوحيد للشهادة الإعدادية الأزهرية .
- ٤ - التمهيد في دراسة العقيدة الإسلامية .
- ٥ - الإلهيات في العقيدة الإسلامية .

في الفلسفة

- ٦ - الروح في دراسات المتكلمين والفلاسفة .
- ٧ - المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه .

في الآيان

- ٨ - المدخل لدراسة الأديان .
- ٩ - أصول النصرانية في الميزان .
- ١٠ - أوروبا والنصرانية .
- ١١ - المسيح ورسائله في القرآن .
- ١٢ - عبادة الشيطان في البيان القرآن والتاريخ الإنساني .

في الفرق الإسلامية

- ١٣ - قضية التكفير في الفكر الإسلامي .

— ٢٠٦ —

- ١٤ — الحوار بين الجماعات الإسلامية .
- ١٥ — مقدمة في دراسة الفرق الإسلامية .

في السيرة النبوية

- ١٦ — الرسول في رمضان .
- ١٧ — الرسول حول الكعبة .
- ١٨ — الرسول والوحى .
- ١٩ — الرسول وقضايا المجتمع .
- ٢٠ — الرسول والمواقفات .

في الشريعة الإسلامية

- ٢١ — محاور تطبيق الشريعة .
- ٢٢ — نحو دستور إسلامي .
- ٢٣ — أخلاق الأمرة المسلمة .

تحقيق مؤلفات فضيلة الدكتور سيد أحمد رمضان المسير

— رحمة الله تعالى —

- ٢٤ — السنة مع القرآن .
- ٢٥ — السنة المطهرة .
- ٢٦ — إلزام القرآن للماديين والمليين .
- ٢٧ — دراسات قرآنية .

الفهرست

الصفحة	الموضوع
٢	• المقدمة
٩	• المبحث الأول : بين يدي الموضوع
١١	• أهمية دراسة علم العقيدة
١٢	— العلم بالله تعالى أشرف العلوم
١٣	— بيان العقيدة الصحيحة وإقامة الحجة عليها
١٤	— مواجهة شبهات المبطلين
١٤	— علم العقيد أساس العلوم الشرعية
١٥	— العقيدة وإخلاص النية
١٨	• مباحث علم العقيدة
٢٥	• أسماء علم العقيدة
٢٥	— علم التوحيد
٢٦	— علم الكلام
٢٧	— علم أصول الدين
٢٧	— علم الفقه الأكبر
٢٨	— علم العقيدة
٣١	• المبحث الثاني : نشأة علم العقيدة وتطوره
٣٣	• مرحلة العهد النبوي
٣٧	• مرحلة الصراع العسكري
٤٣	• مرحلة الصراع السياسي
٤٧	• مرحلة الصراع الفكري
٥٥	• مرحلة العصر الحديث

الصفحة	الموضوع
٥٥	— الاتجاه الأشعري
٥٦	— الاتجاه السلفي
٥٧	— الاتجاه الاعتزالي
٥٨	— كلة أخيره
٦٣	• المبحث الثالث : الإسلام وتقرير العقائد
٦٥	• المعجزة العقلية
٧١	• أصول التفكير
٧٥	• المعرفة والتقليد
٨٣	• مصادر العقيدة
٨٣	— العقل
٨٤	— القرآن
٨٥	— السنة
٨٩	— أقوال السلف
٩١	• الحكم وأنواعه
٩١	— أقسام العلم
٩٢	— الحكم الشرعي
٩٣	— الحكم العقلي
٩٧	• المبحث الرابع : خصائص العقيدة الإسلامية
٩٩	• صوت الفطرة
١٠٠	— ماذا تقول اللغة
١٠٠	— ماذا يرد المنطق
١٠٠	— ماذا تريد العقيدة
١٠٩	— حديث الفطرة
١١٣	• دعوة الانبياء

الصفحة	الموضوع
١١٧	• توحيد القرآن
١٢٣	• الدين الخالص
١٢٣	— المراد بالدين الخالص
١٢٥	— مفهوم العبادة
١٢٦	— المعاني البشرية
١٢٧	— نماذج شركية
١٢٩	• آفاق عقيدة التوحيد
١٢٩	— أفق الاسم
١٣١	— أفق العلم
١٣٣	— أفق الوجدان
١٣٥	— أفق الاجتماع
١٣٧	— أفق الذكوة
١٣٩	• المبحث الخامس : قراءة في كتب العقيدة
١٤١	• التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل للإمام ابن خزيمة
١٤٣	— المؤلف وسبب التأليف
١٤٥	— الصفات الخيرية
١٤٨	— كلام الله تعالى
١٤٨	— الرؤية
١٥٠	— الشفاعة
١٥٠	— حكم مرتكب الكبيرة
١٥٢	— ملاحظات
١٥٥	• المواقف في علم الكلام لعبد العزيم الإيجي
١٥٧	— المقدمة
	(١٤ - التمهيد)

الصفحة	الموضوع
١٥٩	— الموقف الأول : في المقدمات
١٦١	— الموقف الثاني : في الأمور العامة
١٦٣	— الموقف الثالث : في الأعراض
١٦٥	— الموقف الرابع : في الجواهر
١٦٦	— الموقف الخامس : في الإلهيات
١٦٩	— الموقف السادس : في السمعيات
١٧٢	— خاتمة المواقف
١٧١	— تعقيب
١٧٥	• شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي العزّ القاسمي
١٧٧	— تقديم
١٧٨	— قضية التوحيد
١٨١	— نبوة سيدنا محمد ﷺ
١٨٢	— رؤية الله تعالى
١٨٣	— مسائل عقديّة
١٨٤	— ملاحظات
١٧٨	• رسالة التوحيد للأستاذ الإمام محمد عبده
١٨٩	— المؤلف وسبب التأليف
١٩٠	— مقدمات
١٩٠	(أ) علم التوحيد ومنهجه
١٩١	(ب) عصر الخلافة
١٩١	(ج) حلة المشاعل
١٩٣	(د) موقف الفلاسفة
١٩٢	(هـ) مذهب الأستاذ الإمام

الصفحة	الموضوع
١٩٤	— الإلهيات
١٩٦	— النبوات
١٩٧	— ترقى ^١ الأديان بترقى الإنسان
١٩٨	— انتشار الإسلام
١٩٩	— ولنا ملاحظات
٢٠٣	• خاتمة
٢٠٥	• كتب للمؤلف
٢٠٧	• الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب

١٧٤٨٥ / ١٩٩٨ م

L. S. B. N.-977 - 19 - 7802 - 0

١٩٩٨ / ١٢ / ٧١ ف

